



مجانا مع جريدة المدى

ستيفان زفايج



ترجمة : يحيى حقي

مجاناً مع جريدة المدى



■

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

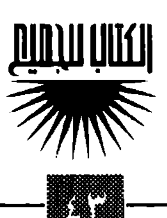
■

فاكس ٧١٧٥٩٤٣
هاتف ٧١٧٠٥١٣-٧١٧٠٣٩٥-٧١٧
almadapaper.com
almada119@hotmail.com
almada112@yahoo.com

سلسلة شعبية تعيد إصدارها

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق- ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy
لبنان -بيروت- الحمراء- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb
العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٢-٧١٧٠ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com



٤٣

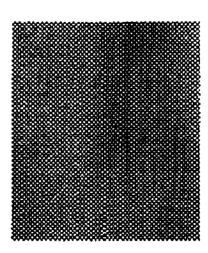
ستيفان زفايج

لاعب الشطرنج

ترجمة: يحيى حقي

طبعة خاصة
توزع مجاناً مع جريدة (المدى)

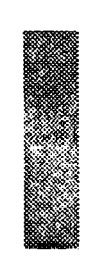
دار المدى للثقافة والنشر
٢٠٠٨



إهداء

إلى صديقي واخوي
الدكتور نعيم عطية
والأستاذ سمير وهبي
لما أسعداني به من محبة ووداد...

يحيى حقي



مقدمة

لا احسب أن ناشئاً في الأدب يصادق استيفان زفايج إلا أحس لتوه انه وقع أسيرا في قبضته، لا مفر له من أن يتأثر به، سعيه بعد ذلك أن يتحرر منه ليهتدي إلى سليقته، لا بد له أن يقرأ كل حرف كتبه ثم يقول هل من مزيد، إنني أتكلم عن تجربة، هكذا كان حالي، لا اخجل من الاعتراف بأنني كتبت قصة (البوسطجي) في شبابي وقت أن وقعت أسيراً في قبضة زفايج حين صادفته في طريقي، أسرني كما يأسر كل قارىء ولا ريب بصفة غالبة على جميع مؤلفاته. سواء في القصة أو السيرة أو التاريخ أو الرحلات، هي الاتقاد والجيشان، اتقاد يحيل الحديد الغليظ إلى كتلة شفافة من لهب، وجيشان كالنافورة المتوثبة التي لا ينضب فيضها ولا يضعف اندفاعها، متلاحقة، بعضها آخذ من بعض، وهي في كل الأوقات من قوام واحد، مذهلة قدرته على الجمع بين الاستمرار والتجدد، بأي خطو سار ستشعر انك تلهث جرياً في تتبعه، تتمنى أن ينتهي مشوار تتمنى ألا ينتهي، فإذا فرغت منه أحسست بشبع تحسب انك لن تعاني بعده من جوع مهما صمت، أحسست أيضاً – صدقني– بشيء من التنميل يمس أعصابك بألم لذيذ، الم تكن تجري طول

المشوار؟ تحس بشيء من الخجل والغيظ لأنك تعريت، كأن يدا قد نفضت عنك ثيابك واندس منها ألف إصبع إلى دخيلتك تفتش عن أسرارها وتكشفها، بل تعرفك بها، فقد كنت تجهلها لأنها مطوية في ظلام جوفك، ولكن التفتيش تم على وهج كتلة اللهب الشفافة، أصبحت العواطف في قلبك قادرة على بلوغ نهايتها القصوى، الحب إلى ذروة الوله والهيام، والنفور إلى غاية من الكراهية والبغضاء، تتفجر هذه العواطف لأن مشرط زفايج قد مزق ركودها في قلبك، يمنحك متعة الشبع عند النهاية، ولكنه يحرمك أيضا من متعة تأمل كل فقرة على حدتها لأنك تجري وتلهث، كأن كل فقرة نفخة متجددة في الأتون لكي يزداد التهاباً، وهذه هي أهم سمات العمل الفني، الفقرات لا بد أن يكون لها نبوغها وعبقريتها استقلالاً، ولكنها تذوب في الكل حتى تكاد لا تنتبه لها، ومع ذلك إذا حذفت واحدة منها انهار البناء اجمعه.

وسط هذا الاتقاد تنصهر الألفاظ وتتحول اللغة من العموم إلى الخصوص، وتخاطبك بلسانين:

الإفصاح والإيحاء، المباشرة والكناية، الحق والاستعارة، بل يتحقق لها المستحيل، الجمع بين النقيضين، طابع الألف والحرية، كأن كل الناس هكذا يتكلمون، وطابع الرق والاستعباد لأنك تعدلها أو قل تشوهها لكي تفي بغرض نفعي مستبد في سياق لا يطابق الواقع ويزعم انه في الواقع، حوار أبطال القصة صادق ولكن لا احد في الدنيا يتكلم مثلهم في حال كحالهم، لا بد من الاختزال الجبري والبتر بلا حسرة لملء قوالب محددة يستقل بها العمل الفني، وشرط ألا يبين طابع من طابع، الفن لغة تنسيك صراحتها أنها شفرة سحرية ترمز- كما في الأسطورة- إلى سر الباطن من تحت الظاهر وتوحد الكائنات تحت ستار من الشتات هكذا لغة الفن، لغة زفايج، لا يسمح اتقادها لبصمات البلاغة وقواعد النحو إن تجلجل فتصم الأذن، أو أن ترشق العين فتفقؤها، الالتحام

يتحقق من وراء ظهر أدوات الوصل والعطف كأنما بالرغم منها لا بفضلها، والسلام متبادل بين الأسماء والأفعال والحروف.

وليس هذا فحسب، إن اسر استيفان زفايج لقارئه راجع أيضاً إلى نزعته الإنسانية الجارفة، لا ينقص من قدر الإنسان عنده انه ضعيف، هو يعريه ولكن لا يسخر منه، لا اعرف مثله كاتباً عظيماً خبيراً بأسرار النفوس وأقنعة الخداع، برأ قلمه تمام البرء من السخرية، ما أقوى إغراء السخرية لكاتب يتأمل البشر من عل لا للترفع عنهم بل لاستيعابهم، ومن عجب أن السخرية رغم زعمها أنها وليدة حس مرهف غض الذكاء تنم بالعكس عن الجفاف أو تهدد به، سلم منها زفايج حتى في خريف عمره، مطلبه هو فهم الإنسان لا الحكم عليه، انه يتركه كما تناوله، كما التقى به ويودعه! ريشة في مهب الريح تصارع وحدها مصيرها، هذا الكاتب في حديقة الأدب الألماني شجرة حور متوثبة، نافورة من خشب، سامقة، جذع رشيق يدق كلما علت، فلا تنبت الأغصان إلا قرب تاجها الشامخ وهي قليلة، كأنما جعلت ليفرد عليها شراع مشتاق إلى بحار مجهولة، هيهات للآثم الضال أن يجد تحتها ظلاً أو نفحة من أمل، إنها ترمقه بعين فاحصة ثم تتركه في الهجير لقدره، هيا به إلى الظل الوارف تحت شجرة سنديان، غليظة الجذع، دحداحة، رحابة الصدر عندها أحب من ارتفاع الهامة، فاحشة الثراء بأغصان ملتفة، دانية، دائرة، كأنها قبة محراب، توحي بالسكينة والحكمة، هي شجرة جوته، التقى بفاوست وهو هاو إلى الجحيم ولكنه لم يتركه إلا بعد أن فتح له باب الأمل في رحمة الله وغفرانه إذا صدق ندمه وصحت توبته، في رسالتها وهي برد وسلام ونفج للروح... بعد سنين عديدة سيبقى جوته فذاً كما كان، على حين قد يظهر لزفايج أنداد كثيرون.

هرب استيفان زفايج في قصصه من رافعي لواء الطقوس والفلسفة والحكمة والتاريخ ليلوذ بحضن الفن وحده، هو خلاصة الجميع ولكن لا

يستبعده احد، هو الكلمة الأخيرة التي كانت على ألسنتهم كلهم ولأمر ما لم ينطقوا بها، لا عجب حين نطق بها الفن إن كان لها مثار حيرة وخلاف، غير مقنعة هي أيضاً، أعرفت الآن لمن الكلمة الأخيرة؟ لمن كانت له الكلمة الأولى...

الآن يؤنبني ضميري، لأنني تحدثت عن الشبع الذي يحس به قارىء ستيفان زفايج وأنا اكتم شكاً في صدري لا بد لي من أن أصارحك به. يثير هذا الشك سؤالي:

هل في الشبع كما في الجوع ما هو جاذب؟ وإلا فلماذا فرغت من قراءة كتاب لهذا الساحر الآسر؟ أتعرف الشهاب الذي يلمع فجأة بالليل، لا ترى حياته إلا لحظة يهوى قفزاً كالمشنوق إلى حتفه متقداً متوهجاً كأنه شمس تجمعت في شرارة واحدة فاجرة، تحسب أن أذنك تسمع أزيزها، جميع النجوم البراقة بدت بغتة معتمة، تخطف أنفاسك فتكاد تشهق من فرط انبهارك به ولكن كل عمره لا يزيد عن طرفة جفن، فإذا ارتد البصر وجدت هذا الطارىء المقتحم قد انكشط عن صفحة السماء. لأثر له ولو شبهة من دخان شاحب، عادت النجوم العتيقة إلى بريقها الثابت المتصل كأنما ليس الأهم عنده هو طول العمر والأثر بل البرهنة بخيلاء على براعته الخارقة في جذب الأنظار والإدهاش ولو للحظة عابرة يدفع عمره كله ثمناً لها، والغلو في استعراض البراعة افتناناً بالنفس يلقى جزاء لا مفر منه: أن يكون الأثر كالشبع الكاذب، أخشى أن يكون هذا هو حال الساحر الآسر استفان زفايج. ما أسرع استيلاءه عليك واستبداده بك، ما أسرع انعتاقك منه لحظة أن يتوارى عنك، لا اذكر أن نفسي همت بي أن أعيد قراءة كتاب له كنت انبهرت له اشد الانبهار إبان خضوعي له، إنما تعاد قراءة كاتب يكون كالنجوم المتأنية الخاشع همسها إليك بمعنى الجمال والانسلال في الملكوت، كان مددها من ثدي أم ترضع طفلها، لا تقصد إشباع جوعه، بل تمنحه غذاء يسري في كيانه ويبنيه صحيحاً على مهل.

أتكون خلة اليهود إبان الشتات هذه الشهوة العارمة لاستعراض براعة على الإدهاش تبز طاقة بقية الناس، تلمساً لكبرياء يدحضون بها إذلالهم الذي جروه هم على أنفسهم. شطحات كثيرة في الفنون التشكيلية والأدب المسرحي مرجعها إليهم بدافع من هذه الشهوة التي انقلبت بعد الصهيونية إلى داء يشبه جنون العظمة، بل تجد هذه الشهوة على تعليقات فرويد، وقد يفسر بها كثرتهم بين العازفين الفيرتيوز وقلتهم بين الملحنين المبدعين العظام. فالفيرتيوز أبدع تمثال يجسد إعلان البراعة الفذة التي تتعمد جذب انبهارك. فإذا كان استيفان زفايج بين العازفين هو الفيرتيوز فهل لأنه بين مصابيح السماء هو الشهاب.

يضاف إلى رصيد زفايج قدرته الواضحة على المثابرة والتتبع، إنها مظهر هيامه بالكشف وظمئه للمعرفة، ما أن يبدو له طرف خيط حتى يطبق عليه بيد صائد فاتك وحنون معاً على الفريسة المسكينة. ويظل يجذبه بإصرار ورفق، محاذراً أن ينفلت أو ينقطع أو يلتوي، إلى أن يصل مهما طال المدى إلى خبيئة البكرة التي أطلقته، تراه في أوج قدرته لا عند العقد التي تصادفه وتوهم ضخامتها أنها عسيرة مع أنها سهلة، منتفشة لأنها هائفة، بل عند العقد الصغيرة كرأس الدبوس، لا يبين منها ظهر من بطن، مبتور منها اللسان والأذرع والسيقان إن لم تسعفه أنامله في فكها لم يتركها بل استعان عليها بأظافره، بأسنانه، ومن هنا نحس أن أسلوبه لا يلتهم السرد فحسب بل ينهشه نهش الغول، هكذا يصل إلى قرار النفوس فيكتشف سرائرها، وكشف سرائر النفوس هو أول شيء يشوقه، لا هم له غيره، انه لا يعيش إلا له، إن انقطع عنه باخ ورذل، بهذه المتابعة الظمأى للمعرفة قام استيفان زفايج في "لاعب الشطرنج" بتشريحين، في الأول كسر جمجمة هذا الفتى الجلف الغبي الخام المعتم الذي لا عمل لجسده إلا أن يحجب الضوء دون أن ينبعث منه شعاع واحد يصافح به الكون والناس فيدل على يقظة إنسانيته، كيف ولماذا ومن أين

تأتي له أن تتلألأ في مخه الصدىء موهبة واحدة فحسب هي موهبة لعب الشطرنج، فيصبح على رقعته بطل العالم المنتصر في كل موقعة، إذن ما هو سر مخ الإنسان وكيف يعمل وهل تترابط أو لا تترابط قنواته، ما هو سر الذكاء، افمن الجائز أن ينحصر ويتخصص في بؤرة صغيرة في هذا المخ ومن حولها خلاء تام، عن طريق جمجمة لاعب الشطرنج؟ يريد زفايج أن يطل ونحن معه على مخ الإنسان عامة، إن سره يحيره ويشوقه ويتحداه...

التشريح الثاني لنفس لا لمخ، نفس رجل متمدن مثقف متصل بالعالم أوثق اتصال، فعال ومنفعل، مؤثر ومتأثر، يريد زفايج أن يعرف التحولات البشعة التي تحدث لهذه النفس حين يحكم على صاحبها بالحبس الانفرادي في زنزانة ضيقة، ليس بها إلا طاقة صغيرة عالية ينفذ منها نور اقرع بلا مرئيات فهو والظلام سواء، حتى الأصوات محجوبة عنها، ليس فيها صحيفة أو كتاب أو ورقة أو قلم، ولا زائر، حتى الحارس يظهر دون أن يتكلم، كل يوم كالأمس والغد، كل لحظة كالسابقة واللاحقة، أصبح والأشياء المحيطة به، الفراش والمنضدة والصحن- من شدة ألفه بها خليطاً واحداً لا تدري أهي من الأحياء أم هو من الجماد، سترى دبيب التحطم والانهيار- قل الجنون- إلى هذه النفس خطوة خطوة، تحولات مرعبة، ليست نفسية فحسب بل بيولوجية أيضاً، فأسر مساحة الزنزانة لقدمين- طولاً وعرضاً- سيظل عالقاً بهما حتى بعد إطلاق سراحه، قد أقنعنا زفايج أن أقسى تعذيب للإنسان هو الحبس الانفرادي، كل وسائل محاكم التفتيش بالنسبة إليه رحمة.

جمع زفايج في أقصوصته بين لاعب الشطرنج ونزيل الزنزانة يبنيان هيكلها بالتقاء المنفصلين ومشاركة المنفردين كانهما إبرتا تريكو تصنعانً معاً وكل منهما مستقلة نسيجاً يتوالى نموه غرزة غرزة حتى يكتمل، يصعب أن تفرق في عمل الإبرتين بين التوازي والتداخل وبينهما

"ولس" لا ينقطع، وهذا مثل فذ لبراعة زفايج في صناعة القصة وحبكها وتفصيلها وتركيبها وسوقها ونموها المطرد إلى غايتها المقصودة على أتم وجه بحيث تستحيل الإضافة أو الحذف.

وأود أن أخبرك هنا للدلالة على قيمة هذه الأقصوصة وارتفاعها إلى مرتبة النماذج أو الكلاسيكيات في الفن القصصي أن صحيفة (الموند) الفرنسية- جليلة القدر- خرجت عن تقاليدها الراسخة في إباء نشر قصة مسلسلة على صفحاتها اليومية وقدمت لقرائها "لاعب الشطرنج" مسلسلة في أواخر صيف سنة ١٩٧٢، حقاً إنها ركبت موجة الاهتمام بمباراة الشطرنج الدولية بين بوبي فيشر الأمريكي وموريس سناسكي الروسي في مدينة لايكافيك، ولكن لولا قيمة هذه الأقصوصة ورغبة الموند أن ترفع بفضلها اهتمام قرائها بهذه المباراة من مستوى نوادي هواة الشطرنج إلى مستوى حضاري وثقافي رفيع، لما ظهرت على صفحاتها مسلسلة...

لا أود أن أطيل عليك بسرد سيرة زفايج وإحصاء أعماله العديدة، ما أسهل أن تجد هذا كله في احد المراجع لكن لا بد لي هنا أن أقول لك إن زفايج يهودي، لم يخف عنا ديانته على خلاف أندريه موروا الذي لم نعرف انه أندريه هيرزوج إلا بعد أن كتب سيرته الذاتية. وزفايج رغم ديانته- ربما بسبب ديانته- يزهو بأنه منتم إلى حضارة غرب أوروبا المسيحية، مؤمن بكل تقاليدها فلما رأى هذه التقاليد تتهاوى تحت ضربات هتلر وموسوليني حكم بان هذه الحضارة قد أفلست وان حياته هو قد أفلست أيضا، كل شيء إذن زائف، فلم يبق له إلا أن يقتل نفسه فكان انتحاره آخر مأساة يؤلفها.

لاعب الشطرنج

ساد الهرج والمرج كالعادة قبيل الإبحار على ظهر السفينة الكبيرة التي تزمع الإقلاع في منتصف الليل من نيويورك إلى بيونس ايرس. وتوالت وفود الركاب يصعدون إلى السفينة يحيط بهم حشد من الأصدقاء، واخذ سعاة مكتب البرقيات وقد مالت الكاسكيت على آذانهم... يصيحون بأسماء عبر الصالونات، واختلطت شيالة الحقائب بحملة باقات الزهور، وشرعت جموع من الصبية بدافع من حب الاستطلاع تستكشف السفينة طلوعاً ونزولاً، كل هذا والفرقة الموسيقية تعزف ألحانها كأنما لا تبالي بشيء.

التجأت للنجاة قليلاً من الضجة والزحام إلى الممشى العلوي المعد لنزهة الركاب، وشغلني حديث مع صديق لي، فإذا بوميض نور يتألق بالقرب منا مرتين أو ثلاثاً، لا ريب أنها آلات فوتوغرافية مصوبة نحو راكب ذي مقام لتصويره على عجل قبل السفر، فالتفت صديقي نحوها وابتسم وقال:

- سترافقكم في السفينة شخصية فذة.

ولما رأى نظرتي لا تنم عن الفهم أضاف موضحاً:

- معكم سيركو زينتوفيك البطل العالمي في لعبة الشطرنج، لقد عبر الولايات المتحدة من الشرق إلى الغرب وفاز في كل المباريات، وها هو ذا يسافر الآن إلى الأرجنتين للظفر بأمجاد أخرى[1].

تذكرت حينئذ خبر هذا الشاب وعجائب سيرته المدهشة، وزودني

---

١ - نشر نصها الأصلي بالألمانية أول مرة سنة ١٩٤٢ في مدينة استكهولم عن دار برمان فيشر.

صديقي- لأنه أكثر مني قراءة للصحف- بطائفة من النوادر التي تروى عنه فازددت به علماً.

بلغ زينتوفيك منذ سنة تقريباً مرتبة اشهر أئمة لعبة الشطرنج مثل البكين، وكابابلانكا، وتارتا كوبر، ولاسكار، وبيجو لجوبوف، لم تبق عند احد منهم حيلة تخفى عليه، ومنذ أن لمعت موهبته الخارقة المبكرة في مباريات نيويورك سنة ١٩٢٢ لم ير الناس فتى مغموراً مثله ينجح في تسليط اسطع الأضواء على هذه اللعبة وأبطالها، ذلك أن مواهبه العقلية لم تكن قط تبشر بمستقبل باهر، وسرت الشائعات بان هذا البطل عاجز عن أن يكتب جملة واحدة حتى بلغته دون خطأ في قواعد الإملاء، وقال عنه منافس له في سورة من الحنق: انه جمع الجهل كله.

ولد زينتوفيك لأب بائس فقير من سلالة الصقالبة، كان يعمل نوتياً في سفينة شراعية تلتزم نهر الدانوب فصدمتها ذات ليلة سفينة بخارية محملة بالقمح وأغرقتها، وكان الصبي حين ذاق اليتم قد بلغ الثانية عشرة من عمره، فاحتضنه قسيس القرية وبذل عن طيبة قلب وبأمانة غاية الجهد في أن يعيد على هذا الصبي الخامل الصموت دروسه التي تلقى عليه في المدرسة، ولكن هذه المحاولات باءت بالإخفاق، يحني ميركو جبهته الفسيحة على سطور سبق شرحها له أكثر من مائة مرة، ويظل يحملق فيها بعين خالية من الفهم، بل انه بعد أن بلغ الرابعة عشرة من عمره ظل لا يعد إلا على أصابعه، لا يقرأ صحيفة أو كتاباً إلا بمشقة بالغة، وما كان لأحد أن يتهمه بأنه لا يبذل غاية جهده، كل أمر يتلقاه يؤديه بروح طيبة، كحمل الماء وقطع الخشب والعمل في الحقل وتنظيف المطبخ، وبعبارة موجزة ينجز بعناية كل عمل يكلف به، وان أداه ببطء يثير الغيظ.

ولكن الطبع الذي أغم القسيس طيب القلب من تلميذه العجيب كان بالأخص عجزه المطلق عن الاهتمام بشيء ما، فكان لا يقوم بأي عمل

من تلقاء نفسه، لا يوجه أبداً سؤالاً، لا يلعب مع رفقائه، فما يكاد ينتهي من عمل يتولاه حتى يتخذ له مكاناً في حجرة النوم، ينطق منظره بغياب الذهن وغموضه شأن منظر البهم السائمة، لا يلقى باله أبداً إلى شيء يحدث أمامه. فإذا جاء الليل جلس قسيس القرية مع الضابط صديقه يلعب الشطرنج كعادته ثلاثة ادوار، فكان الصبي حينئذ يقرب إليها جمته الشقراء وتستقر له على رقعة الشطرنج نظرة ساهمة كأنما أثقل الكرى أجفانه، وحدث ذات ليلة والرجلان مستغرقان في اللعب أن نم صليل أجراس يقترب بسرعة عن مقدم عربة زحافة على الثلج، ثم ما لبث أن دخل مندفعاً فلاح قد غطى الثلج قبعته وناشد القسيس أن يصحبه ليؤدي طقوس الغفران الأخيرة لأمه العجوز لأنها تحتضر، فلم يتأخر القسيس عن الخروج معه.

وبقي زميله الضابط وأمامه كوب من الجعة لم يتم شربه فاشعل غليونه وشرع يعالج وضع قدميه في حذائه الثقيل، تهيأ للخروج فإذا به يلحظ فجأة كيف أن نظرة ميركو بقيت ثابتة بإصرار على الرقعة التي بدأ عليها اللعب ثم توقف. فقال له مازحاً:

- هيا، أتحب أن تتم الدور معي؟

ذلك انه كان واثقاً من أن هذا الصبي الخامل يحسن نقل قطعة واحدة ولو كانت بيدقاً وفقاً لأصول اللعب.

رفع الصبي رأسه بتهيب وأومأ إليه بالقبول، واحتل مقعد القسيس فلم تمض أربع عشرة حركة حتى خسر الضابط الدور، وأيقن أن هزيمته ليست عن إهمال منه، فلعب دوراً آخر فإذا به يخسره أيضا.

ولما عاد القسيس وعلم الخبر صاح قائلاً:

- يا لها من معجزة، لقد نطق لعمري حمار النبي بلعام.

ثم مضى يشرح لصديقه- وهو اقل منه علماً بالعهد القديم- كيف حدثت معجزة منذ ألفي سنة حين نطق حمار النبي بلعام فجأة بكلام كله حكمة.

وبالرغم من أن الليل كان قد تقدم فإن القسيس لم يستطيع كبح جماح رغبته في أن ينازل تلميذه فغلبه ميركو بسهولة، كان يدير اللعب ببطء وعناد وهدوء، له خطة محكمة لا تنكر، وفي الليالي التالية لم يفلح القسيس ولا الضابط في الانتصار على هذا الصبي ولو مرة واحدة، وشاق القسيس وهو يعلم مقدار غباء تلميذه في كل مجال آخر أن يعرف مدى هذه الموهبة الفذة، فقاد ميركو إلى حلاق القرية فقص جمة له في لون الهشيم حتى لا يقتحم منظره العيون، ثم صحبه في العربة الزحافة إلى البندر المجاور، إذ كان يعرف فيه رجلاً مهموماً بلعبة الشطرنج يجيدها خيراً منه ويعكف عليها الساعات الطوال في ركن من قهوة الميدان الكبير.

ودخل القسيس القهوة وهو يدفع أمامه فتى لم يبلغ الخامسة عشرة، مصفر الشعر احمر الخدين، على كتفيه فرو خروف مقلوب، فحملق إليه جلاس القهوة بدهشة وبقي الفتى مزروعاً في مكانه قد غض من بصره في حياء، حتى نودي عليه فأطاع وجلس يلعب فخسر أول دور، لأنه لم ير قط أستاذه السابق ولا صديقه الضابط يلجأ في بدء اللعب إلى الخطة التي تسمى "الدفاع الصقلي" وفي الدور الثاني نازله امهر لاعب في القهوة فلم يخرج احدهما غالباً أو مغلوباً، ثم قهر بقية اللاعبين واحداً واحداً بعد آخر.

وهكذا اتيح لبندر صغير في يوغسلافيا أن يكون مسرحاً لحادث مثير، واتيح لأعيانه أن يشهدوا الخطوات الأولى المذهلة لهذا البطل القروي، وقر رأيهم بالإجماع على استبقاء هذا الفتى النابغة بينهم إلى الغد حتى ينقلوا خبره إلى بقية هواة اللعبة عندهم وعلى رأسهم الكونت سيمزك، وهو رجل له هوس بلعبة الشطرنج أما القسيس- وقد بدأت نظرته إلى تلميذه تنطق بالفخر به- فقد شق عليه أن يهمل واجبات كنيسته وأعلن انه لا يمانع في أن يبقى معهم تلميذه وحده لينازل بقية

اللاعبين. فحجزت له حجرة في فندق البندر، ورأى تلك الليلة لأول مرة مرحاضاً له سيفون.

وفي مساء الأحد وفي صالة مكتظة بالناس مكث هذا الفتى أربع ساعات وهو جالس لا يتحرك أمام رقعة الشطرنج وقهر كل منازليه، لا يلفظ بكلمة ولا يرفع نظره، ثم اقترحوا عليه أن يلاعب جماعة في وقت واحد وشق على أصحاب الاقتراح أن يفهموا هذا القروي المغلق الذهن معنى قولهم، فلما فهم أخيراً أنهم يطلبون إليه أن يلاعب وحده وفي الوقت ذاته عدداً متفرقاً من اللاعبين أنفذ لهم رغبتهم على الفور، واخذ ينتقل من لاعب إلى الآخر ولحذائه الثقيل صوت مسموع.

حينئذ بدأت مشاورات طويلة، ومع أن هذا البطل الجديد لا يعد حقاً من عشيرتهم إلا أن حب استئثار بلدهم بكل صيت حسن تملك قلوبهم، فمن يدري؟ لعل بندرهم الصغير الذي لا يكاد يتبين موقعه في الخرائط يذيع اسمه يوماً لأنه موطن رجل شهير.

تقدم متعهد حفلات اسمه كيلر، شغلته تقديم الراقصات والمغنيات إلى الحانات، وتطوع بأن يصحب الفتى الأعجوبة إلى مدينة فينا، وان يقدمه هناك إلى أستاذ مدهش- هكذا قوله- يتولى صقل موهبته، وقال إن الأمر يتوقف على أن يتكفل واحد منهم بدفع نفقة إقامة الفتى في تلك العاصمة لمدة سنة، وإذا كان الكونت سمزيك لم يلق طول حياته وهو يلعب الشطرنج منذ ستين سنة خصماً يضارع هذا الفتى، فإنه تقدم على الفور وكتب حوالة بالمبلغ المطلوب، وهكذا بدأ هذا الفتى القروي ابن النوتي يشق طريقه إلى قمة المجد.

ولم تمض ستة اشهر حتى الم ميركو بكل أسرار لعبة الشطرنج، ولو أن إدراكه لها ظل في الحق داخل حدود ضيقة، وقد انكشف قصوره هذا وأصبح موضع تندر في المحافل التي ارتادها من بعد، إذ كان لا بد له أن يرى الرقعة والقطع ماثلة أمامه، وظل من ديدنه- حتى بعد أن ذاعت

شهرته في إرجاء الأرض- أن يحمل في جيبه لعبة شطرنج في حجم صغير حتى يهتدي بها حين يريد حل معضلة أو إعادة تمثيل دور لعبة أستاذ شهير.

هذا العجز- وهو هين في ذاته- دل على قصور خياله، وجرى ذكره بالعجب على السنة المحيطين به كما تجري السنة هواة الموسيقى بالعجب من احد مهرة العازفين أو قائدي الاوركسترا حين يشل حركته غياب النوتة الموسيقية عن عينيه، ولكن هذه الخلة لم تعق ميركو عن أن يتوالى تألقه المذهل: في السابعة عشرة من عمره كان قد نال أكثر من عشر جوائز، وفي الثامنة عشرة أصبح بطل المجر، وفي سن العشرين انتزع البطولة العالمية لنفسه، وكشف بقية اللاعبين وهم يفوقونه بمراحل شاسعة في الذكاء والخيال والجرأة عن عجزهم عن الصمود أمام منطقة المحكم الصارم.

وكانت زمرة أئمة الشطرنج إلى عهده لا تضم إلا أمثلة متنوعة عديدة للذكاء الفائق- من فلاسفة وعلماء بل من هؤلاء الآخرين من جمع إلى موهبته قدرته على الابتكار، فإذا بهذه الزمرة يقتحمها شخص غريب على عالم الفكر، يطالعها به فتى قروي جلف صموت، لم يفلح الصحفيون قط في أن ينتزعوا من فمه كلمة واحدة تنفع مقالاتهم عنه.

ولكن لا بأس، إنهم يجدون اجزل العوض في ذكر نوادره العديدة، إذ أن هذا الفتى الذي لا ينكر احد عليه موهبته إذا جلس إلى الرقعة، يصبح لحظة أن يفارقها شخصاً يثير السخرية والهزء رغم وقار بذلته السوداء وفخفخة رباط رقبته، تزينه لؤلؤة ثمينة، ومع أن يديه تنمان عن فرط العناية بهما والإلحاح في تلميع اظافرهما، فانه ظل يحتفظ في حركته وتصرفاته بهيئة القروي الجلف الذي طالما كنس حجرة القسيس في عهد من عهوده.

وكان زملاؤه يبتسمون تارة ويتفجعون للفضيحة تارة أخرى حين

يرونه وهو ينفي التجمل والخجل، لا يشغل فكره بشيء إلا استغلال موهبته وشهرته ليعتصر منهما آخر قرش يستطيع أن يربحه، لا ينكص من جشعه عن الانحطاط إلى أحقر الدنايا، في أسفاره العديدة لا ينزل إلا في فنادق الدرجة الثالثة، ولا يرفض أن يلعب في النوادي المغمورة ما دام يحصل منها على أجره، ورأى الناس صورته على إعلان عن صابون، ولم يأبه لسخرية العالمين بعجزه عن أن يخط جملة واحدة صحيحة وباع اسمه لناشر ليضعه على كتاب يصدره بعنوان (فلسفة الشطرنج)، والحقيقة أن هذا الكتاب هو من تأليف طالب من غاليسيا بتكليف من هذا الناشر البارع في تجارته كالأزرق الناب.

وفقد رينتوفيك- ككل رجل عنيد- كل إحساس ببواعث السخرية، وظن نفسه بعد أن انتنزع البطولة العالمية قد أصبح أهم شخص في الدنيا، وحين ملأ جنبيه الزهو بانتصاره على أصحاب الذكاء الفائق وعلى المشهورين بقدرتهم على خلب الألباب بأحاديثهم الشيقة أو بتفوقهم في مجال الأدب، وحين رأى بالأخص انه يربح من المال أكثر منهم، انقلب حياؤه الأصيل إلى بجاحة باردة، يعرضها بعجرفة سخيفة على الناس ولا يبالي.

واستطرد صديقي يروي لي نوادر أخرى عن سذاجة غرور زينتوفيك وختم كلامه قائلاً:

- ولكن كيف كان يمكن لمثل هذا النجاح العاجل إلا أن يدير رأسا فارغاً مثل رأسه؟ كيف تريد من فتى فلاح من قرية مجهولة، لا يزال في سن الواحدة والعشرين، أن لا يدور رأسه وهو يرى انه يكفيه نقل قطعة من الشطرنج على الرقعة ليربح من المال في أسبوع واحد ما يفوق كل ما يربحه أفراد عشيرته في سنة كاملة بعمل شاق في الحقول والغابات؟ اوليس من الهين أن يحسب إنسان نفسه رجلاً عظيماً إذا كان هذا الإنسان يجهل أن الدنيا قد عرفت رمبرانت وبيتهوفن ودانتي؟ إن هذا

الفتى الفض لا يشغل فكره إلا بخاطر واحد، هو انه منذ شهور لم يخسر دوراً واحداً، لا عجب إن امتلأ غروراً بنفسه لأنه في غفلة عن وجود قيم أخرى في هذه الدنيا غير الشطرنج والمال.

لم يخب كلام صديقي في إثارة عجبي واهتمامي، فإني أهيم دائماً بدراسة أصحاب الفكرة الثابتة، فمن خلال عالمهم الضيق نصل إلى عالم لا نهائي، هم وان عاشوا في وحدة ظاهرة يبنون بما في أيديهم من مواد خاصة بهم- وكما يفعل النمل- نماذج مصغرة لعوالم مدهشة، فأعلنت لصديقي عزمي على أن أراقب عن كثب هذا المثل الفريد لحصر الذهن ونموه داخل مجال واحد، وقلت إنني لتحقيق غرضي سوف استغل على أحسن وجه هذه الأيام الاثني عشر التي تلزمنا للوصول إلى مدينة ريو.

وحذرني صديقي قائلاً:

- إن فرص التوفيق أمامك ضئيلة، لا اعلم أحداً قد نجح في أن ينتزع من زينتوفيك كلمة تنبىء عن ضميره.

فهذا الجلف يخفي وراء غياهب غبائه مكراً يتحرز به من كشف دخيلة نفسه والأمر سهل عليه، فهو يتجنب الحديث إلا مع أناس على شاكلته من القرويين الذين يصادفهم في الفنادق الحقيرة حين ينزلها، فإن أحس أن محدثه رجل مثقف اختفى داخل قوقعته، وهكذا لا يستطيع إنسان أن يفخر بأنه سمعه ينطق بكلمة تنم عن غفلته وغبائه أو بأنه استطاع أن يقيس مدى جهله.

وقد أثبتت تجربتي صحة قول صديقي، ففي الأيام الأولى من الرحلة عجزت رغم كل جهد عن أن اتصل به، إلا إذا أقحمت عليه نفسي بقلة أدب، وهذا ليس من طبعي ولا من عادتي.

كان يصعد إلى سطح السفينة في أوقات عديدة، ولكن له هيئة تنبىء انه يخلو لنفسه وأفكاره فيصد الناس عنه، يداه مشتبكتان وراء

ظهره في وضع عرف به نابليون بونابرت بشهادة صورة شهيرة له، ثم ينصرف فجأة وعلى عجل بحيث لا يبقى لمن يريد مخاطبته إلا أن يجري وراءه. لم يره احد لا في (البار) ولا في حجرة التدخين ولا في (الصالون)، وأفضى إلى احد الخدم انه قضى معظم وقته في حجرته يتدرب على اللعب بشطرنج من حجم كبير.

كفتني الأيام الثلاثة الأولى لأن أقتنع بأن صدوده أقوى من رغبتي في إنشاء صلة لي به، وغاظني إخفاقي، ولم يكن سبق لي أن اعرف عن قرب بطلاً من أبطال الشطرنج، وكلما حاولت أن أفكر كيف يكون هذا البطل زاد عجزي عن تصوره، ما هي حقيقة ذهن محصور طول العمر في رقعة منقسمة إلى ٦٤ مربعاً بين ابيض واسود ؟ لا جرم أنني اعرف بالخبرة مدى السحر الخفي في هذه اللعبة الملكية التي تنفرد دون سائر الألعاب بتحررها الأسمى من نزوات الحظ وسلطانه، لا يعود فضل الانتصار فيها إلا للذكاء وحده، أو- على الأصح- لنوع معين من الذكاء. ولكن أليس في إطلاق وصف "اللعبة" على الشطرنج بخس من قدرها ؟ أليس الشطرنج علماً وفناً أو شيئاً يتراوح بين الاثنين؟ إن تاريخ مولد الشطرنج يرجع إلى أزمان موغلة في القدم، ومع ذلك فهو جديد أبداً، حقا إن قطعة تنتقل بحركة ميكانيكية يترتب بعضها على بعض، ولكن الفوز يتوقف على ذكاء اللاعب وحده، الشطرنج مقيد برقعة هندسية ثابتة ومع ذلك فلا حد لتعدد أشكاله وتآليفه، انه دائم الانكشاف ولكن بدون ثمرة وبلا هدف، انه فكر لا يؤدي إلى شيء، وحساب لا يثبت شيئاً، وفن لا يبقى له اثر، وعمارة بلا قوالب، ومع ذلك فقد اثبت انه بطريقته الخاصة أبقى من الكتب وكل الآثار الفنية. هذه اللعبة الفريدة تملكها كل الشعوب في كل الأوقات، لا احد يدري أي وحي وهب الشطرنج للبشر ليقتل الملل ويؤجج وينعش الروح. أين بدايته وأين نهايته؟ يستطيع الصبي الصغير أن يتعلم قواعده، وفي مكنة

الجاهل أن يلم بها ويصبح صاحب مقدرة لا مثيل لها إذا منحته الأقدار موهبة فهم الشطرنج، وإذا اجتمع الصبر وحذق أصول اللعبة يؤازرهما نظر كاشف للأستار، تأتّى الوصول إلى ابتكارات عديدة، كما يحدث في علم الرياضة وفن الموسيقى والشعر.

لو أتيح لرواد العلم الحديث في القرون الماضية أن يعاصروا بطلاً في لعبة الشطرنج، فلربما دفع شغف المعرفة بأستاذ من بينهم يعنى بعلم وظائف المخ- مثل الدكتور جال- إلى أن يقوم بتشريح جمجمة هذا البطل بعد موته ليعرف هل مخه ينفرد بخصائص تميزه عن سائر الناس، بأن تكون مادته السنجابية مختلفة، أو أن يكون له أعصاب أو نتوء لا ترى في مخ احد غيره ما أمتعه من أنموذج للدراسة كان لا يمكن أن يقدمه له إلا رجل يجمع في آن واحد بين موهبة خاصة فائقة في لعب الشطرنج وخمول عقلي بلغ تمامه، موهبته تندس في ذهنه كما يندس عرق الذهب في بطن الصخور الصم.

حقاً إنني افهم- من حيث المبدأ- أن لعبة لها مثل هذا التفوق النابغ قادرة على أن تجتبى فرساناً يجولون ويصولون في ميدانها شأن مصارعي الثيران في حلبتهم ولكن كيف يتأتى تصور ذكاء يمضي عمره كله محصوراً في رقعة صغيرة، لا يشغله إلا تحريك اثنتين وثلاثين قطعة إلى الأمام أو إلى الخلف فوق مربعات بيض وسود ؟

وكيف أن كل مجد لصاحب هذا الذهن يتوقف على نجاحه في رسم هذه الحركات؟

أي شيء هو هذا الرجل الذي يؤمن انه أتى بعمل بطولي لمجرد انه افتتح اللعب بنقل الفرس بدل البيدق؟

بفضل هذه الحركة يذكر اسمه في كتب الشطرنج ويشغل مكانه الصغير بين الخالدين. بل أي شيء هو هذا الرجل الذكي الذي يستطيع- دون أن يصاب بالجنون- أن تمضي عليه من السنين عشر وعشرون

وثلاثون وأربعون وهو لا ينفك يكرس غاية طاقته الذهنية لبلوغ هدف سخيف وهو كيف يؤخر ملكاً من خشب إلى مربع في ركن الرقعة؟

واليوم أجد لأول مرة بالقرب مني، في السفينة التي تحملني، على بعد ست قمرات من قمرتي، أنموذجاً لهذه الموهبة الفذة، لهذا النبوغ الفائق أو إن شئت لهذا الجنون الغامض.

ومع ذلك لا يتأتى لي أنا الاقتراب منه، أنا الذي أهيم طول حياتي بعالم الذهن. شرعت ارسم لنفسي خططاً سخيفة، هل ازعم أنني مراسل صحيفة مشهورة واطلب منه حديثاً، أو ازعم أنني اعرض عليه جولة في اسكتلندا يربح منها مالاً وفيراً؟

وأخيراً تذكرت أن الصائد يجتذب فريسته إذا قلد صرختها في موسم التلاقح وقلت لنفسي إن خير حيلة تصيد بها لاعب الشطرنج هو أن يراك تلعبه أنت....

اعترف أنني لست من المبرزين في الشطرنج فإني لا ألعبه إلا التماساً للتسلية، وإذا جلست إلى الرقعة فلطلب الاسترخاء وصرف البال عن المشاغل، ثم إن الشطرنج- كالحب- يتطلب اجتماع اثنين، ولا اعرف هل بين الركاب من يلعبه غيري وغير زوجي، فمن اجل أن نتصيد لاعبي الشطرنج بيننا- إن كان هناك احد منهم- اتخذت أنا وزوجي مكاناً لنا في حجرة التدخين أمام رقعة شطرنج، وزعمنا أننا مستغرقان في اللعب، فلم نكد نمضي في اللعب قليلاً حتى وقف بجانبنا راكب تخلى عن نزهته وتبعه آخر وطلبا منا الإذن لهما بمشاهدة اللعب.

وأخيراً تقدم راكب آخر واستأذنني في أن العب معه، وهو مهندس اسكتلندي اسمه ماك كونور، قيل لي عنه انه جمع ثروة طائلة من شق آبار البترول في كاليفورنيا، هو رجل ربعة، عريض الذقن، سليم الأسنان ثراء تورد بشرته راجع إلى غرامه بالويسكي، عريض الأكتاف مما يدل على أنه صاحب عزم حتى في لعبه، فهو من جنس هؤلاء الرجال الذي لا

تخطيء العين أن حياتهم ناجحة، ويبلغ بهم الوثوق بالنفس إلى حد أنهم يعدون هزيمتهم ولو في لعبة مذلة لأشخاصهم، فإن هذا العصامي اللحيم الذي ألف الاستبداد برأيه وان يأمر بخشونة فيطاع، والذي رده النجاح الصادق غير المزيف إلى طفل مدلل، قد بلغ من غروره بتفوقه أن يعتبر كل معارضة له نوعاً من الفوضى بل يكاد يعتبرها إهانة له.

خسر ملك كونور أول دور فتملكه الضجر والغيظ، واخذ يشرح بتدفق وبلهجة الواثق المطاع كيف انه لم يخسر إلا لأن ذهنه قد سرح لحظة أثناء اللعب، وخسر بعد ذلك دوراً ثانياً، وعلل هزيمته في الدور الثالث بأن ضجة في الحجرة المجاورة قد أقلقت ذهنه، وكان إذا خسر الدور أصر على أن يلعب دوراً جديداً، وقد لذ لي أول الأمر أن أراقب استماتته في سبيل الفوز، ثم قلت لنفسي إن اللعب معه عارض ثانوي في خطتي ليس من شأنه أن يفسدها.

وفي اليوم الثالث نجحت خطتي ولكنها نجحت نصف نجاح، فالظاهر أن زينتوفيك لحظنا من خلال النافذة وهو يتنزه في الممشى، فهل يتنازل يا ترى ويشرفنا بانضمامه إلينا؟

والذي حدث أننا رأيناه يخطو إلى حجرة التدخين خطوات تبدو غير متعمدة، فلما دخل ألقى من بعيد نظرة الخبير إلى الرقعة التي هي ميدان فنه، وكان ماك كونور آنئذ ينقل بيدقاً يا لسوء الحظ! لقد كفت هذه الحركة وحدها أن تقنع الأستاذ الكبير بأننا غير جديرين باهتمامه والنزول إلينا من عليائه.

ابتعد زينتوفيك عنا وغادر حجرة التدخين، لفظنا بحركة من يدخل مكتبه للبحث عن كتاب قيم فتقع يده على قصة بوليسية رخيصة فيطوح بها على الفور دون أن يعنى بتقليب أوراقها، فقلت لنفسي:

وضعنا في الميزان فهان عنده قدرنا، وشعرت بامتعاض من نظرته الدالة على احتقارنا ولم استطع أن اكتم ضيقي فقلت لماك كونور:

- الظاهر أن حركتك لم تعجب الأستاذ.

- أي أستاذ تعني؟

فأوضحت له أن هذا الرجل الذي وقف إلى جانبنا وألقى نظرة تنم عن عدم الرضى إنما هو زينتوفيك البطل العالمي للعبة الشطرنج...

ثم أضفت:

- لا حيلة لنا إلا أن نقبل احتقاره ونحتمل إهانته بنفس قانعة، كما يقنع الفقير بطبخ أكله بالماء إن فاته الدهن.

ولكن قولي هذا وما جعلته ينم إلا عن تجردي وحيادي كان له وقع مذهل عجيب. فقد اضطرب ماك كونور وهاج، وتخلى عن الدور الذي بدأه، وانتفخت أوداجه من شدة تململه لجرح كرامته، وقال انه لم يكن يعلم أن زينتوفيك مسافر معنا، وانه إذن لا بد أن ينازله، لأنه لم يلعب من قبل مع بطل من أبطال الشطرنج إلا مرة واحدة، حين نازل في لعبة جماعية احد هؤلاء الأبطال، وكاد يكسب الدور، وسألني هل زينتوفيك من خلطائي؟ فلما نفيت له ذلك اقترح علي أن اذهب وأقابله لأرجوه الانضمام إلينا، فرفضت متعللاً بان زينتوفيك لا يحب في مبلغ علمي أن يوسع دائرة خلطائه، ثم قلت وأي متعة لبطل مثله أن يلعب مع هواة من الدرجة الثالثة مثلنا؟

اعترف أنني أخطأت، كان الحرص يقتضيني أن لا ارمي بعبارة اللاعبين من الدرجة الثالثة أمام رجل مغرور مثل ماك كونور.

مال صحبنا بظهره إلى الوراء وقال بلهجة خشنة:

انه يعتقد أن زينتوفيك لا يسعه إلا القبول إذا دعاه سيد مهذب، وانه هو نفسه سيتكفل بدعوته وطلب مني أن أحيطه علماً به فأمددته بوصف موجز لزينتوفيك، فلم أكد افرغ حتى انطلق يبحث عنه على ظهر السفينة ورأيت مرة أخرى كيف يكون من العبث أن تحاول إثناء رجل له مثل هذه الأكتاف العريضة عن تنفيذ فكرته، ومكثت انتظر النتيجة في

شيء من القلق والتوجس وعاد بعد عشر دقائق ووجهه ينطق بالغيظ وقال:

- أصبت، إن هذا الرجل جلف، قدمت له نفسي وعرفته بمقامي فلم يتنازل حتى أن يمد لي يده، فبذلت غاية جهدي لإقناعه بأن جميع المسافرين يسرهم غاية السرور أن يلعب معنا نحن لعبة جماعية، مع ذلك لم يلن جانبه وقال انه يأسف إذ رفض الدعوة لأنه مرتبط بعقد يلزمه بأن لا يلعب خلال جولته إلا بأجر، لذلك فهو مضطر لأن يطلب منا أن ندفع له ٢٥٠ دولاراً على الأقل عن كل دور...

فاندفعت ضاحكاً وقلت: ما كنت احسب قط أن نقل قطعة من الخشب من مربع ابيض إلى مربع اسود يدر مثل هذا القدر الكبير من المال، آمل أن تكون قد ودعته وأنت تفارقه وداعاً جميلاً لا لقاء بعده.

ظل ماك كنور محتفظاً بسمة الجد وقال:

- سيجري اللعب في الساعة الثالثة عصر الغد في حجرة التدخين هنا، وأرجو أن نصمد فلا تلحقنا هزيمة ساحقة...

فصرخت فيه والأسف يملؤني: ماذا؟ هل قبلت شروطه؟

- ولم لا... إنها مهنته ومورد رزقه، فلو وجعني ضرسي وكان معنا على السفينة طبيب أسنان لما طالبته أن يخلعه لي مجاناً!

إن زينتوفيك على حق، ككل رجل حاذق يحسن تدبير أموره وأما عن نفسي فإني أؤمن في الصفقات بالمثل القائل "الشرط نور" فإني أفضل أن ادفع الأجر حتى لا يكون اعتمادي وحده على ظرفه ولطفه إذا اكتفيت بشكره بعد نهاية اللعب.

ثم انه يحدث لي أن اخسر في ليلة واحدة في النادي أكثر من ٢٥٠ دولاراً دون أن أحظى باللعب مع بطل عالمي، ولا ضير على لاعب في الدرجة الثالثة أن- ينهزم أمام زينتوفيك.

أمدني قوله هذا بدليل على أنني حين وصفته ببراءة وحسن نية بأنه

لاعب في الدرجة الثالثة قد أصبت كبرياءه بجرح بليغ لا يزال له نغر يلح عليه، ولم يسعني إلا أن أوافقه ما دام قد اعتزم أن يدفع من اجل متعته هذا المبلغ الكبير، انه سيتيح لي الفرصة لأن اشهد عن كثب هذه الشخصية التي أثارت اهتمامي، وسارعنا بإبلاغ الخبر إلى أربعة أو خمسة من المسافرين نعرف أنهم من هواة الشطرنج. وتأميناً لراحتنا غدا حجزنا جميع المقاعد القريبة من مجلسنا.

لم تأذن الساعة المتفق عليها حتى التأم شمل زمرتنا الصغيرة، وتخلينا بطبيعة الحال إلى ماك كنور عن المقعد المواجه لمقعد الأستاذ، واخذ صاحبنا الاسكتلندي- وقد استبد به القلق- يدخن سيجارة اثر أخرى، ولا ينفك ينظر إلى الساعة المعلقة على الجدار، ولطعنا زينتوفيك عشر دقائق بعد موعده دلالة على مقام بطل شهير، فلم يدهشني ذلك منه بعد أن عرفت مسلكه مع ملك كنور، وأخيرا هل علينا بوجه يبلغ نطقه بالوثوق بالنفس حد البجاحة، وخطا إلى المنضدة خطوات متئدة مرسومة، ولم يقدم نفسه إلينا، كأنه يقول لنا "انتم تعلمون من أنا ولا يهمني في شيء أن اعلم من انتم" وبدأ صف قطع اللعب بخشونة المحترفين، وتعذر أن تدار بيننا وبينه لعبة جماعية، إذ لم يكن بالسفينة عدد من رقع الشطرنج يكافيء عدد أفراد زمرتنا كلهم، فاقترح زينتوفيك علينا أن ينضم بعضنا إلى بعض من جهة واحدة نلعب ضده، وعرض علينا أيضاً انه بعد كل حركة منه سيبتعد عن المنضدة إلى نهاية الحجرة ليخلو لنا الجو لتبادل الرأي بيننا، وان نقرع كوباً من الزجاج بملعقة- فليس عندنا جرس- كلما فرغنا نحن من حركة، وان لا يزيد الوقت بين حركة وأخرى- إذا وافقنا- عن عشر دقائق، فقبلنا بطبيعة الحال عروضه كلها ونحن أشبه بتلاميذ غلبهم التهيب والحياء.

وخرج اللون الأسود في القرعة من نصيب زينتوفيك فكان رده على أول حركة منا نفتتح بها نحن اللعب أن نقل على الفور قطعة من القطع وهو واقف لا يبالي أن يجلس، ثم مضى لتوه إلى نهاية الحجرة يحتل المقعد الذي اختاره للبقاء فيه إلى أن ننتهي نحن من التشاور، وشرع يتصفح بإهمال مجلة مصورة.

لا جدوى في أن اروي هذا الدور بالتفصيل، حاقت بنا هزيمة ساحقة بعد ٢٤ حركة، وأي عجب في أن ينتصر بطل عالمي على عدد من أوساط اللاعبين.

ولكن الذي أغمنا أكثر من الهزيمة هو اعتداده بنفسه وتعمده أن يشعرنا بتفوقه، لا يلقي إلى الرقعة إلا نظرة عارضة، ولا إلينا إلا نظرة عابرة بإهمال، كأننا أيضاً قطع من الخشب، أو كلاب جرب يلقى إليها المار بعظمة من وراء ظهره، وقلت لنفسي: لو حباه الله شيئاً من الرقة لتنازل ونبهنا إلى الأخطاء التي نرتكبها أو شجعنا بكلمة طيبة، ولكن كلا. ما كاد الدور ينتهي حتى نطقت هذه الآلة الصماء قائلة "كش الملك - مات الملك" ثم ظل صامتاً لا يتحرك ينتظر أن يعرف هل نرغب أو لا نرغب في أن نلعب دوراً ثانياً؟ صفاقة هيهات أن تقاوم.

وكنت قد قمت من مقعدي معلناً بذلك أن هذه هي نهاية لهونا، وإذا بي لشدة دهشتي اسمع ماك كنور يقول بصوت مبحوح:

- نلعب دوراً ثانياً!

قالها بلهجة تحد أخافتني، وبدا لي أن ماك كنور في تلك اللحظة لا في صورة السيد المهذب بل في صورة الملاكم الذي يستعد لتوجيه ضربته.

أيرجع سبب لهجته إلى معاملة زينتوفيك لنا بغلظة؟ أم إلى ما في طبع ماك كنور من غرور مريض؟ على كل حال تجلت لنا منه صورة غير صورته المألوفة. اشتد احمرار وجهه حتى بلغ منبت شعره. اتسع منخرا انفه، وهو يتنفس بصوت ويعض على شفته. وارتسم أخدود عميق بين فمه وذقنه العريض، وعرفت بجزع في عينيه بريق التلهف الجنوني الذي لا يصيب عادة إلا المقامرين لاعبي الروليت الذين يضاعفون رهانهم لسادس وسابع مرة على لون لا يخرج لهم. إن غروره الأحمق سيستنزف كل ماله وسيظل يلعب مع زينتوفيك مرة بعد أخرى على أمل أن يفوز

بدور واحد على الأقل، وإذا وجد منه مطاوعة كان له بمثابة المنجم الذي يستنزف منه بضعة آلاف من الدولارات قبل أن نبلغ بيونس ايريس، أما زينتوفيك فقد ظل جامداً لا ينطق وجهه بشيء... ثم قال:

- الأمر لكم. اللون الأسود هذه المرة من نصيبكم.

ومضى الدور الثاني كالدور الأول وان زادت حلقتنا قليلاً بانضمام بعض من ساقهم إلينا حب التطلع وتسمرت نظرة ماك كونور على الرقعة كأنه يريد أن يسحر قطع اللعب بتيار مغناطيسي يقودها إلى النصر، وشعرت انه على استعداد لأن يدفع ألف دولار لو أسعده الحظ بان يصرخ "كش الملك.. مات الملك" في وجه غريمه الذي لا يعرف المجاملة.

وانتقل إلينا بالعدوى شيء من حماسته وإصراره، فأخذنا نناقش كل حركة وقد ازداد هياج نفوسنا، ولا نتفق على رأي إلا قبيل انتهاء مهلته من قبل أن ننادي زينتوفيك ليعود إلينا.

كنا قد وصلنا آنئذ إلى الحركة السابعة عشرة فإذا بنا لشدة دهشتنا نرى اللعب يتحول إلى مصلحتنا إذ نجحنا في أن ندفع ببيدق إلى الصف السابق للصف الأخير، ولم يبق إلا أن نقدمه خطوة واحدة حتى يستبدل بهذه القطعة وزير، ولم نكن في الحق على ثقة بأن الحظ قد ابتسم لنا، وخامرنا جميعاً شك في مكر زينتوفيك، انه ولا ريب ينظر ابعد منا، انه يقدم لنا هذا الطعم لغرض يتكتمه وأجهدنا أنفسنا في البحث والنقاش حتى نكتشف هذا الغرض فلم نوفق.

وأخيرا اقتربت المهلة من نهايتها وكان رأينا قد استقر على اغتنام الفرصة وتقديم البيدق وكاد ماك كنور يدفعه إلى الصف الأخير "فإذا برجل يمسك ذراعه ويهمس في أذنه "إياك أن تفعل بالله عليك"، التفتنا إليه جميعاً على غير إرادة منا رأينا رجلاً قارب الخامسة والأربعين، له وجه مكتنز بادي العظام وكنت قد صادفته من قبل على ظهر السفينة وراعني منه شحوبه الشديد، لا شك انه قد اقترب منا، ونحن مستغرقون

في تدبر حل للمعضلة التي تواجهنا، فلما أحس بنظراتنا تثبت عليه أضاف:

إذا قدمتم البيدق الآن واستبدلتم به قطعة الوزير، فإنه سيهاجمكم بالفيل، فتردون الهجوم بتحريك الفرس، ولكنه يكون قد هدد قلعتكم ببيدقه، وحتى لو ضحيتم بالفرس فإن الهزيمة ستحيق بكم بعد الحركة التاسعة أو العاشرة، إن الوضع الذي انتم فيه يشبه إلى حد كبير وضع الدور الذي لعبه اليكين مع بوجولشوبوف في المباراة الكبرى سنة ١٩٢٢ بمدينة بيستيان.

عدل ماك كنور- وقد علته الدهشة- عن تقديم البيدق، وكان لا يزال محتفظاً به في يده، واخذ يتأمل في عجب- شأننا جميعاً- هذا الرجل الذي كأنما هبط علينا من السماء كالملك الحارس.

إن رجلاً يستطيع من سابق أن يحزر مجرى اللعب بمقدار تسع حركات لا بد أن يكون من أئمة المحترفين بل لعله من قرناء زنتوفيك، وسافر أيضاً للاشتراك في المباريات ذاتها، وعددناها من قبيل المعجزات أن يقدم إلينا هذا الرجل ويرشدنا في عز الوقت الذي بلغ بنا الحرج ذروته، وكان ماك كنور هو أول من استفاق من الدهشة وهمس له وقد هاجت نفسه:

- بماذا تنصحني.

- لا تقدم البيدق الآن، وتجنب خصمك، وعليك أول كل شيء أن تزحزح الملك عن موضعه، ففيه يكمن الخطر. إن خصمك سيهاجم من الجناح الآخر، وحينئذ تصدونه بالقلعة ويخسر بذلك بيدقاً كما يخسر تفوقه عليكم، وإذا أحسنتم الدفاع خرجتم لا غالبين ولا مغلوبين هذا غاية ما تبلغونه من هذا الدور.

انتقلنا من دهشة إلى دهشة اكبر، وبهرنا منه هذا التجديد للحركات وهذه السرعة في حسابها، وخيل إلينا أن هذا الرجل يقرأ

الحركات من كتـاب وانه لا يعزى إلا لمعجزة خارقة خروجنا من اللعب مع بطل عالمي لا غالبين ولا مغلوبين، وتزحزحنا جميعاً بحركة واحدة تلقائية لنفسح له موضعاً يتيح له رؤية أفضل للرقعة وكرر ماك كنور سؤاله:

- هل انقل الملك؟

- بلا ريب... بذلك تتجنب خصمك.

أطاعه ماك كنور وقرعنا الكوب فاقترب منا زينتوفيك بخطواته الهادئة المطمئنة، وكفته نظرة واحدة لأن يتدبر رده على حركته، ثم قدم بيدقاً في الجناح الآخر كما توقع منقذنا المجهول، الذي همس من توه وقد احتد صوته:

- القلعة، قدموا القلعة ليضطر إلى حماية بيدقه ولن ينفعه هذا في شيء، ستهاجمونه حينئذ بالفرس، وبذلك تعود المساواة بينكما كما كانت، ثم يبدأ هجومكم ولن تكونوا في حاجة إلى التزام الدفاع.

لم نفهم شيئاً من قوله كأنما كان يتكلم باللغة الصينية، واستخذى له ماك كنور وأنفذ نصيحته دون أن يجهد فكره، وقرعنا الكوب من جديد، ولأول مرة لم يسارع زينتوفيك إلى اللعب من فوره، بل ظل يتأمل الرقعة طويلاً ثم حرك القطعة التي تنبأ بها صاحبنا المجهول وتهيأ للابتعاد عنا.

حينئذ وقع حادث جديد غير منتظر... رفع زينتوفيك بصره وجال به بيننا، انه يحاول بلا ريب أن يدرك من منا قد صمد له فجأة، وأصبح هياج نفوسنا منذ تلك اللحظة لا يعرف له حداً، كنا نلعب بلا أمل، فإذا بدمنا تلهبه فكرة تحطيم زيننتوفيك وكبريائه الباردة، وكان صاحبنا المجهول قد فرغ من تدبر الحركة التالية فارتعشت أصابعي وأنا أتناول الملعقة لأقرع بها الكوب لاستدعاء زينتوفيك.

ذقنا حينئذ لذة أول انتصار لنا، فإن البطل الذي لم يشأ من قبل أن يلعب إلا واقفاً تردد هذه المرة ثم تردد، ثم انتهى تردده بأن جلس وهو

كاره، تاركاً جسمه يهوي إلى المقعد ما لنا وله، انه كف عن أن يعلن بالواقع المحسوس استعلاءه علينا، قد أجبرناه على النزول إلينا لنبقى جميعاً في مستوى واحد في فضاء الكون على الأقل. أطال زينتوفيك الاستغراق في التفكير ورأسه محنية على الرقعة إلى حد أننا عجزنا عن رؤية مقلتيه من تحت جفنيه الثقيلتين، وأجبرته شدة الجهد الذي يبذله أن يبقي فمه مفتوحاً، واكتسى وجهه المستدير بشيء من بلاهة الأطفال، وبعد مضي بضع دقائق لعب لعبته ونهض فتمتم صاحبنا.

- أجاد اللعب وتجنب الخطر، ولكن إياكم أن يخدعكم،/ العبوا بحيث لا يبقى له خيار في لعبته القادمة إذا أردتم الخروج من الدور لا غالبين ولا مغلوبين، لا شيء الآن يستطيع إنقاذه.

أطاعه ماك كنور، وانحصر اللعب بعد ذلك بين الخصمين، ونحن كأننا زمرة من الكومبارس لا نفهم شيئاً، وبعد ست أو سبع نقلات بقي زينتوفيك مستغرقاً في التفكير ثم أعلن:

- الدور "باطة".

وأطبق السكون الشامل علينا لفترة من الزمن، وبدأنا فجأة نسمع بوضوح خرير الأمواج وموسيقى الجاز الخافتة المنبعثة من مذياع في الصالون المجاور، وأصبح لوقع أقدام المتنزهين على سطح السفينة صوت بيّن يصل إلينا، بل انتبهت آذاننا لهذا الصرصر الخفيف الذي يحدثه الريح وهو يمر من خصاص النوافذ.

كتمنا أنفاسنا لشدة الدهشة من انقضاض هذه المباغتة علينا، وراعنا أن حدث أمامنا شيء يجل عن التصديق: كيف استطاع رجل مجهول أن يوقع ببطل عالمي نصف هزيمة؟ مال ماك كنور فجأة إلى الوراء وندت من فمه صرخة تدل على الغبطة والفرح، وكنت أراقب زينتوفيك فخيل إلي أن وجهه قد شحب قليلاً أثناء الحركات الأخيرة في الدور، ولكنه عرف كيف يتمالك نفسه وظل على جموده وقلة مبالاته، ثم رفع قطع الشطرنج بيده وقال بصوت عاطل لا ينم عن دخيلة ضميره.

- هل تريدون أيها السادة أن نلعب دوراً ثالثاً.

ألقى سؤاله بلهجة من يتحدث عن مسألة لا تمس شخصه، كأنه رجل أعمال يتكلم عن صفقة تأتي وتروح.

ولكنه حين نطق بسؤاله لم يوجهه إلى ماك كنور، بل قذف بنظرة نفاذة ناحية منفذنا المجهول، وكما أن للفرس إحساساً يدرك به لحظة أن يمتطيه إنسان هل هو راكب خبير أم غير خبير فكذلك زينتوفيك، لا شك أدرك بإحساس له أثناء الحركات الأخيرة في الدور أي رجل هو خصمه، لاحظنا جميعاً نظرته على غير إرادة منا والتفتنا ناحية الرجل المجهول، لم يترك له ماك كنور وقتاً يتدبر فيه أمره أو ينطق بإجابته، بل صرخ إليه وقد انتفخت أوداجه من زهو الانتصار:

- نوافق على العين والرأس ولكنك ستلعب أنت وحدك معه، أنت وحدك ضد زينتوفيك.

حينئذ وقع حادث غريب، كان الرجل المجهول قد بقي يتأمل الرقعة الخالية باستغراق غير مفهوم، فإذا بنا نراه حين أحس الأنظار تثبت عليه وتناشده بإلحاح- ينهض قفزاً من مكانه وقد اضطرب أيما اضطراب، وتمتم بارتباك:

كلا. كلا. هذا محال. أيها السادة. إنني لا أستطيع أن استجيب لكم، لقد مضى علي عشرون أو خمس وعشرون سنة دون أن يقع نظري على رقعة شطرنج، لقد أقحمت نفسي عليكم بغير إذنكم، وأدرك الآن فحسب أن هذا الإقحام كان حماقة مني، أرجوكم الصفح عن طفيلي يعاهد نفسه أن يتوب توبة نصوحاً، صدقوني؟

ثم غادر الحجرة من قبل أن نستفيق من دهشتنا.

صرخ ماك كنور وهو يغلي ويضرب المنضدة بقبضة يده.

- في المسألة سر لا بد أن نعرفه أهذا شأن رجل زعم انه لم يلعب الشطرنج منذ خمس وعشرين سنة؟ هذا مستحيل. إنه كان يتدبر بإمعان

كل حركة ويحزر خطة خصمه قبل سفورها بوقت طويل، ليس في قدرة إنسان أن يلعب هكذا اعتباطاً... هذا شيء مستحيل كل الاستحالة.

والتفت ماك كنور عن عمد إلى زينتوفيك وسأله:

- الست من هذا الرأي؟

ولكن الرجل ظل جامداً ثم قال:

- لا أستطيع أن احكم، في الحق أن هذا السيد له فن بلفت النظر لذلك تساهلت ورضيت أن اترك له فرصة يثبت فيها تفوقه.

ثم نهض وأضاف وهو غير مبال:

- إذا أحب احد منكم أيها السادة أن يلعب غداً فإنني رهن مشيئته هنا ابتداءً من الساعة الثالثة من عصر الغد.

لم نقو على كتم ابتسامة علت شفاهنا، كنا نعلم جميعاً انه إذا كان قد خسر الدور فمكره أخاك لا بطل!

وان كلامه عن تساهله حيلة ساذجة يخفي بها نكبته فازدادت رغبتنا في إذلاله وإرغام انفه في التراب، وتبدل حالنا: لم نكن إلى تلك الليلة إلا ركاب سفينة ينعمون بالتنقل بين الدعة والكسل، فإذا بنا نتحول فجأة إلى أناس تتملكهم الضراوة وشهوة القتال، حين جال في أذهانهم أن هذه السفينة التي تمخر عباب المحيط قد تشهد مصرع زينتوفيك... انه خبر يذاع من فوره بالراديو على العالم اجمع... ومما زاد في هياج نفوسنا هذا السر الغامض الذي أحاط بمنقذنا المجهول، وهذا التناقض الواضح بين غلو تواضعه وبجاحة كبرياء اللاعب المحترف.

من هو هذا اللاعب المجهول؟ هل اتاح لنا الحظ أن نكتشف للعالم لاعباً عبقرياً جديداً؟ أم تراه بطل ذائع الصيت أخفى عنا اسمه لسر محجب؟ وأخذنا ندير بيننا هذه الأسئلة وقد بلغ بنا الهياج قمته، وكان كل احتمال نفرضه- وان شططنا في الخيال- لا يسعفنا في التوفيق بين تهيب الرجل المجهول، واعترافه المذهل، بالرغم من أن تفوقه البين في

لعب الشطرنج يكذبه. ولكننا كنا جميعاً على اتفاق حول مسألة واحدة، وهي رغبتنا بأي ثمن أن نحمل الرجل المجهول على قبول اللعب مع زينتوفيك، وتكفل ماك كنور بأن يتحمل عنا بماله عبء المجازفة بالرهان، وكنا قد علمنا حينئذ من احد الخدم أن اللاعب المجهول من أبناء النمسا، فعهد إلي لأنني من مواطنيه أن أتقدم إليه برجائنا.

لم يطل بحثي عنه، وجدته ناجياً بنفسه فوق ظهر السفينة. مسترخياً على أريكة وهو يقرأ، وأخذت أتأمله ملياً قبل أن أتقدم إليه اسند إلى الوسادة رأسه البارزة عظامه، كأنما يحس بشيء من التعب، وراعني من جديد شحوب وجهه بالرغم من انه لم يتجاوز كثيراً مرحلة الشباب، وحين رأيت ابيضاض شعره لا ادري لماذا خيل إلي انه شاب قبل الأوان. فلما اقتربت منه نهض بأدب وحفاوة وقدم إلي نفسه، ذكر لي لقباً هو من ألقاب الأسر النمساوية العريقة، يشاركه فيه صديق كان لشوبرت الموسيقار العظيم، وبعض أطباء الإمبراطور.

أخبرته برجائنا فبدت عليه دلائل الحرج، واكتشفت انه لم يكن يحسب قط انه نازل اشهر الأبطال، وراعه الخبر لما بلغه مني، واخذ يسألني مراراً هل أنا واثق مما أقول؟ وهل غريمه هو حقاً بطل له مثل هذا الصيت الذائع، وقد هون مسلكه على سفارتي، ولكني لما أحسست بفرط رقته رأيت من الأليق أن لا اذكر له شيئاً عن تحمل ماك كنور غرامة المجازفة باللعب ضد زينتوفيك.

تردد السيد "ب" برهة طويلة ثم قال انه يقبل التحدي، وأضاف بابتسامة من ورائها فكرة:

- قل للسادة أصحابك أن لا يعلقوا علي في غلو آمالاً عريضة، فالحق أنني اجهل هل أنا قادر أو غير قادر على أن العب دور شطرنج طبقاً لقواعده وأصوله، صدقني، لم يكن قط من قبيل التواضع الكاذب تأكيدي لكم بأنني لم أمس رقعة شطرنج منذ أن كنت طالباً في المدرسة

الثانوية، أي منذ أكثر من عشرين سنة، **بل** لم أكن حينئذ إلا لاعباً مبتدئاً لا خطر له.

قال قوله هذا بشيء كثير من البساطة فما شككت في صدقه، ومع ذلك لم يسعني إلا إبداء دهشتي من مقدرته على تذكر خطط أئمة أبطال الشطرنج الذين جاء ذكرهم على لسانه، وقلت إنه كان ولا ريب مهموماً بالشطرنج على الأقل من حيث دراسته النظرية.

فلما سمع كلامي عادت من جديد تعتلي فمه ابتسامته العجيبة الحالمة وقال:

- نعم، ما كان اشد همي بالشطرنج! أنت صادق في عجبك، ولكن خبرتي بالشطرنج قد اكتسبتها في ظروف معينة، بل فريدة في نوعها، إنها حكاية معقدة، كل نفعها إنها تقدم لك صورة عن ظروف مرت بنا، إن صبرت نصف ساعة رويتها لك:

دعاني بإشارة من يده إلى الجلوس على الأريكة التي تجاور أريكته، كنا وحدنا، وخلع السيد ب نظارته وبدأ حديثه:

لقد تفضلت وذكرت لي انك من ابنا مدينة فينا، وانك على علم بلقب أسرتي ولكني لا احسب انك سمعت بخبر مكتب المحاماة الذي كنت أديره أولاً مع أبي ثم وحدي من بعده، ذلك لأننا كنا لا نترافع في القضايا الشهيرة التي تروي الصحف أنباءها، ولا كنا حريصين على زيادة عدد الموكلين، وان شئت الحقيقة فإننا لم نكن نمارس مهنة المحاماة بمعناها في عرف الناس، لا نذهب للمحاكم، بل اقتصر عملنا على الاستشارة القانونية، وعلى إدارة أملاك الأديرة الكبيرة، وكان أبي وثيق الصلة بها، إذ سبق له أن دخل البرلمان نائباً عن حزب رجال الدين، وأستطيع اليوم أن أفضي إليك- فقد زال النظام الملكي من النمسا- إن اغلب أفراد أسرة الإمبراطور عهدوا إلينا أيضاً بإدارة أموالهم، وقد توارثت أسرتي علاقتها بالقصر ورجال الدين منذ جيلين سابقين لجيلي،

كان احد أعمامي طبيباً للإمبراطور، وعم آخر قسيساً، فلم يكن يطلب مني بذل جهد إلا في إدامة هذه الصلة الموطدة. واتصف عملي بالسكينة والهدوء والصمت. عمل ورثته عن آبائي، لا يتطلب للمحافظة عليه إلا أقصى درجات الكياسة وكتمان السر والأمانة الموثوق بها، وكان أبي مضرب المثل في التحلي بهذه الصفات، ونجح في أن يستنقذ لموكليه قدراً كبيراً من ثروتهم بالرغم من التضخم المالي والثورة.

فلما تولى هتلر سلطة الحكم في ألمانيا، وبدأ ينهب الأديرة والكنائس تولى مكتبنا عقد صفقات واتفاقات كثيرة من وراء الحدود، وكان الغرض منها حماية موكلينا من مصادرة أموالهم.... أموالهم المنقولة على الأقل، وكنت أنا وأبي في ذلك الوقت نجهل دخائل سياسة روما وسياسة البيت الإمبراطوري، ولا أظن أن الجمهور سيعرف هذه الدخائل في يوم من الأيام، ولكن شهرتنا بالأمانة وكتمان السر، وحرصنا على تجنب إعلان صلتنا بالأحزاب الملكية، ثم تعمدنا إزالة لافتة المكتب عن بابه... كل ذلك كان مدعاة لأن يجنبنا كل ريبة، فلم تكن في النمسا آنئذ جهة رسمية يخطر ببالها أن بريد الإمبراطور السري يتسرب عن طريق مكتبنا المتواضع، الكائن في الطابق الرابع في إحدى عمارات فيينا. كأنه مكتب بريد سري.

وكان النازي قبل أن يبدأ هجومهم على العالم قد اعدوا في كل البلاد المجاورة لألمانيا أنصاراً لا يقلون عن جيشها في الخطر والتدريب. يصطفونهم من بين المغرورين والغاضبين، وقلما يخلو منهم نظام من أنظمة الحكم أياً كان، عملهم أن يندسوا في كل مكتب وفي كل مؤسسة، بل كان من بينهم جواسيس في مكتب المستشار دولفوس ثم من بعده، شوشنج وقد علمت فيما بعد- ويا للأسف بعد فوات الأوان- انه كان من بينهم جاسوس في مكتبنا الصغير أيضاً، كان مستخدماً صغيراً ألحقناه بالعمل بناءً على توصية قسيس، فعلنا ذلك من اجل أن يبقى

الظن بأن مكتبنا لا يشتغل بشيء إلا بالمحاماة. ثم لم نعهد لهذا المستخدم إلا بعمل السعاة كالخروج لإنجاز بعض المطالب الهينة والرد على التلفون وترتيب أوراق ليست بذات خطر، لم يكن من شأنه أن يفتح البريد وكنت أتكفل أنا نفسي بالدق على الآلة الكاتبة لتحرير الرسائل دون أن اترك منها صورة في المكتب، واحمل معي إلى البيت كافة الوثائق الهامة، ولا أقابل الموكلين إلا في الكنيسة أو بيت عمي.

لم يبق للجاسوس شيء يتصيده في المكتب، ولكن شاء القدر السيئ أن يتنبه هذا المستخدم انه موضع ريبة وان العمل يجري من وراء ظهره، لعل احد رجالنا قد زل لسانه في غيبتي، وتحدث عن الإمبراطور ذاكراً اسمه دون أن يلغز فيسميه "البارون برن" كما هو اتفاقنا، أو لعل الجاسوس فتح البريد غير آبه بأوامرنا على كل حال بدأت سلطات برلين وميونيخ تراقبنا عن كثب، قبل أن تساورني اقل ريبة في انكشاف سرنا، لم أتذكر إلا بعد أن مضى زمن طويل، وبعد أن قبض علي، كيف أن الجاسوس بدأ أيامه الأخيرة بمكتبنا يبدي مزيداً من الهمة والنشاط، لا ينقطع إلحاحه في أن يتولى عني وضع الرسائل في صندوق البريد.

لا أنكر أنني انخدعت به، ولكن كم من دبلوماسي وكم من ضابط راح ضحية انخداعه بهذا الصنف اللئيم.

وأخيراً اتيح لي أن اظفر بدليل مادي على أن الجستابو كان يلاحقنا بتتبعه لنا منذ زمن طويل، ففي الليلة التي قدم فيها المستشار شرشنج استقالته، ليطلع الصباح من بعدها على دخول هتلر إلى فينا، جاء نفر من الحرس والقوا القبض علي، وكنت لحسن الحظ حين سمعت خطاب الوداع الذي أذاعه شرشنج، قد أسرعت بإحراق كل الأوراق الهامة، وكنت قد نجحت في أن اسبق بدقيقة واحدة طرق حرس النازي على الباب، وجمعت كل الوثائق التي تثبت وجود أموال خارج حدود النمسا، بعضها يملكه الدير الذي تنتمي إليه وبعضها يملكه اثنان من أسرة

الإمبراطور، وخبأت هذه الوثائق في سلة ملابس حملتها مربيتي العجوز الأمينة لتسلمها إلى عمي.

قطع السيد "ب" حديثه ليشعل سيجارة، فأنار لهيب الثقاب فمه، فرأيت من جديد فعل عادة له كنت قد لحظته من قبل بدهشة، وهو التواء طرف فمه كلما هاجت أعصابه، انه التواء خاطف لا تكاد تراه العين، ولكنه يضفي على وجهه كله مسحة من قلق عجيب.

ثم أردف يقول:

- تحسبني الآن ولا ريب سأروي قصة أخرى من قصص معسكرات الاعتقال، وان أطنب في وصف ما لقيته من تعذيب وإذلال، كلا. لم يحدث لي شيء من هذا، إذ أنهم سلكوني في زمرة أخرى، زمرة من طمع الحزب النازي في انتزاع أسرارهم لا في الانتقام منهم، فما كان لشخصي الضعيف قيمة في نظرهم- هم يريدون أن ينتزعوا مني أسرارا تنفعهم في محاربة خصومهم.

لم يزجوا بزمرتنا في سجن أو معسكر اعتقال، بل كانت موضع تكريم. فقد انزلوا كل واحد من أفرادها في حجرة خاصة في فندق، هو فندق ميتروبول الذي اتخذه الجستابو مقراً رئيسياً لهم. ونلت أنا أيضاً- وأنا شخص مغمور- هذا الشرف العظيم.

حجرة خاصة في فندق! هل يتأتى لي أن احلم بمعاملة أفضل من هذا ؟ ولكنها كانت اشد مكراً وقسوة طريقتهم في إسكاننا حجرات خاصة تنعم بالدفء، بدلاً من الزج بنا في معسكرات مكتظة تعاني الصقيع، إنهم بذلك قد أسلمونا لوحدة مطبقة، لم يفعلوا بنا شيئاً، بل اكتفوا بتركنا والعدم وجهاً لوجه، ومن المعلوم إن لا شيء يكرب النفس مثل الوحدة. فضرب نطاق من الفراغ حولنا ووضعنا في حجرة لا صلة بينها وبين العالم الخارجي هو أقوى فعلاً في فتح أفواهنا من تعذيبنا بصقيع معسكرات الاعتقال.

لم أجد أول الأمر في حجرتي شيئاً يفسد راحتي، كان لها باب وبها

فراش وكرسي وحوض صغير ونافذة اشتبك عليها سياج من حديد، ولكن الباب ظل مغلقاً ليلاً ونهاراً، كان محرماً علي أن احصل على كتاب أو صحيفة أو ورق أو قلم، وكانت النافذة تطل على جدار عال مواجه لها.

لم أجد حوالي إلا فراغاً أنا غارق فيه، وكانوا قد اخذوا ساعتي حتى لا اعرف مرور الوقت، وأخذوا قلمي حتى لا اكتب شيئاً، وأخذوا مبراتي حتى لا استنزف بها دمي، وكان محرماً علي أن أجد متعة هينة في تدخين سيجارة، لا أرى أبداً وجه إنسان إلا وجه الحارس، وكان مأموراً أن لا يوجه إلي الحديث وأن لا يجيب إذا سألته، كنت لا اسمع قط صوت إنسان.

هذا الوضع الذي حرم الحواس غذاءها طول الليل والنهار خلفني وحيداً يائساً، منفرداً أمام نفسي وأمام أربعة أو خمسة أشياء جامدة: المنضدة، الفراش، النافذة، الحوض.

كنت أعيش كالغاطسين في البحر داخل وعاء وسط خضم من الصمت العميق، ولكن الفرق بيني وبينهم أن الحبل الذي يربطنا بالعالم الخارجي كان قد انقطع عندي، ولم يبق لي أمل في الخروج من غياهب الصمت العميق، لم يكن هناك شيء افعله أو اسمعه أو أنظره، ليس من حولي إلا فراغ مدوخ، فراغ لا حدود له في الزمان والمكان.

أخذت اذرع الحجرة جيئة وذهاباً والأفكار تذرع راسي جيئة وذهاباً بلا هوادة، وعلى نمط واحد لا يتغير.

ولكن الفكر حين يحرم من مدد خارجي يظل يتطلب نقطة ارتكاز له وإلا دار حول ذاته دوراناً جنونياً، لأن الفكر لا يتحمل الفراغ هو أيضاً ينتظر من الصباح للمساء أن يحدث شيء فلا يحدث شيء ينتظر من جديد ثم ينتظر وينتظر، والأفكار تدور، وتدور في رأسه، إلى أن تلتهب أصداغه، لا يحدث شيء، ويبقى وحيداً وحيداً وحيداً.

دام حالي على هذا المنوال خمسة عشر يوماً، عشت خلالها خارج

الزمن وخارج الدنيا، لو اندلعت حرب لما عرفت بخبرها، الوجود كله عندي لا يزيد عن منضدة وباب وفراش وكرسي وحوض ونافذة، وأربعة جدران يثبت على ورقها نظري، كل خط في نقشة قد حفر في عقلي من طول خبرتي به وتأملي له.

وأخيراً بدأ التحقيق، كنا عرضة للاستدعاء فجأة لا ندري متى؟ أبالليل أو بالنهار؟ يقاد بنا عبر دهاليز لا نعرف أين تؤدي، ثم ننتظر في مكان ما، ثم نجد أنفسنا فجأة أمام منضدة يجلس حولها نفر من الرجال في زي رسمي، وعلى المنضدة كوم من الأوراق- داخل ملفات لا نعرف محتوياتها، ثم هذه الأسئلة الصريحة تتلوها أسئلة ماكرة تخفي وراءها أغراضاً أخرى، أسئلة تنصب لك الشرك، وإذ نحن نجيب على هذه الأسئلة تمتد يد غريبة تنم عن العداء لنا، وتقلب الأوراق التي نجهل محتوياتها، ويجري قلم يضمر لنا الشر بخط اسطر في محضر التحقيق فلا نعلم ماذا كتب.

ولكن أكثر شيء أزعجني في هذا التحقيق كان عجزي عن تخمين مدى ما يعرفه الجستابو عن أعمالي بفضل جاسوسهم، وأي شيء بقي يريدون معرفته مني، وكنت كما قلت لك قد أفلحت قبل القبض علي بدقيقة واحدة في أن أرسل إلى عمتي مع مربيتي كل الوثائق ذات الخطر.

كنت اسأل نفسي هل يا ترى حملتها إليها؟ ما مدى علم المستخدم الجاسوس بأسراري وفضحه لها؟ هل وضعوا يدهم على رسائل لي؟ هل ظفروا بشيء من فم قسيس مسكين جرى التحقيق معه بمهارة في دير ندير أملاكه؟

وانهالت علي الأسئلة: ما هي الأسهم والسندات التي اشتريتها لهذا الدير مع أي بنك أتعامل؟

هل اعرف فلاناً أو فلاناً؟ هل تصلني خطابات من سويسرا؟ وإذ

كنت لا اعرف حق المعرفة مدى سابق علمهم بأسراري فقد زلزلني إدراكي أن كل إجابة مني قد تتعلق بها مسؤولية جسيمة، فلو نطقت بشيء لم يصل إلى علمهم أكون بذلك باعثاً بإنسان إلى القبر، وإذا غلوت في إطباق فمي أضررت بنفسي.

لم يكن أسوأ ما لقيته هو التحقيق معي، بل العودة إلى العدم، إلى الحجرة ذاتها، والمنضدة ذاتها، إلى الفراش بعينه، إلى ورق الجدران بعينه.

وكنت لا أكاد أعود إلى خلوتي بأفكاري حتى استعيد في ذهني مجرى التحقيق، أفكر في أحسن إجابة فاتتني وكان ينبغي أن أرد بها، وكيف ينبغي أن أجيب في المرة القادمة لأستبعد الشك الذي أثرته من قبل بعبارة ندت عن فمي بغير أناة أو تدبر.

كنت أغوص وأغوص إلى الأعماق، وامتحن كل إجابة لي سابقة، وأعيد في ذهني كل سؤال وكل رد، وأحاول أن اقدر ماذا يمكن أن يكون قد سجله محضر التحقيق، وأنا عليم حق العلم أن هذا التقدير محال.

ما تكاد هذه الأفكار تنبعث في راسي حتى تظل تدور فيه وتدور، تتشابك على نحو آخر دون توقف، تلاحقني هذه الأفكار حتى في نومي.

وهكذا كان لا مفر- بعد أن ينتهي التحقيق- من أن يطيل فكري عذابه بقسوة تفوق قسوة القضاة، جلسة التحقيق عندهم نهايتها بعد ساعة من عقدها، أما وحدتي في الحجزة فلا تمن على عذابي بنهاية، ليس من حولي إلا المنضدة والفراش وورق الجدران والنافذة، كل وسائل التسلية معدومة: لا كتاب، لا صحيفة، لا وجه إلا وجهي لا قلم يتيح لي أن أسجل به خاطراً جال في ذهني وأريد أن لا أنساه، بل لا عود ثقاب ألهو باشتعاله وإطفائه، لا شيء... لا شيء.... لا شيء....

ليس إلا شيطان عبقري قاتل للروح يهتدي في التعذيب إلى وسيلة

الخلوة داخل حجرة فندق، لو كنت في معسكر اعتقال لعملت ولا ريب في نقل الأحجار حتى تُدمى يداي، ويجمد البرد قدمي داخل الحذاء، ولحشرت مع خمسة وعشرين رجلاً في قبضة الصقيع والعفونة. ولكني كنت مع ذلك سأرى وجوه بشر وأتأمل حقلاً، وعربة نقل يدوية صغيرة، كنت سأنظر إلى شجرة، إلى نجم، سأنظر- أخيراً- إلى شيء جديد بدلاً من هذه الحجرة التي لا يطرأ عليها طارىء، فظيعة في ثباتها المستقر وشبهها الواحد الذي لا يتغير، ليس فيها شيء واحد يستطيع أن يجذب إليه نظري وينقذني من أفكاري وخيالي المجنون واجتراري المريض، هذا هو عين ما يقصده جلادي، أن تطبق على الأفكار حتى تخنقني بحيث لا يبقى لي إلا أن ألفظها لفظ البصاق- كما يقال- واعترف، اعترف لهم بكل شيء، افضح أصدقائي وأدلي للقضاة بما يريدون علمه.

أحسست بسبب هذا الإرهاق المخيف أن قوة احتمال أعصابي قد تراخت، وحشدت بجزم أقصى قواي للبحث عن مخرج.

أخذت- من قبيل خلق شغلة تلهيني- أتلو بصوت مرتفع ما كنت احفظه من قبل عن ظهر قلب، مردداً النص كما تسعفني به ذاكرتي ولو خرج مضطرباً، أتلو قصائد غنائية شعبية، وأناشيد أطفال، وفقرات من هومير حفظتها في المدرسة، ونص مواد في القانون المدني، ثم أخذت أحاول فرض مسائل حسابية لأصل إلى حلها، واختار خبط عشواء أرقاماً ما، وأظل اخلط بينها بالجمع والطرح والقسمة، ولكن وجدت قدرتي على التفكير في خلاء حجرتي مصابة بالشلل، ولم استطع أن أركز ذهني في شيء إذ يستولي عليّ من جديد بفكرة واحدة تلاحقني بإلحاح هي ماذا يعلمون؟ ماذا قلت بالأمس؟ ماذا ينبغي أن أقوله في المرة القادمة.

عشت في هذا الجو الذي لا يحيط به وصف مدى أربعة اشهر، أربعة اشهر: كلمتان ما اقصر عمرهما نطقاً وكتابة، لا يستغرق النطق بهما إلا

أقل من ربع ثانية، ولا تطلب كتابتهما من الحروف إلا النزر اليسير، ولكن كيف يتأتى لإنسان أن يعبر- حتى لنفسه وحده- بالنطق أو الكتابة عن حياة تمضي أربعة اشهر خارج معايير الزمان والمكان؟ لن يفلح احد أبداً في التعبير عن هذا الخلاء المطبق كيف يبلى ويحطم، ولا وقع منظر هذه المنضدة الأبدية وهذا الفراش، هذا الحوض الأبدي وهذا الورق على الجدران، ما وقع هذا الصمت المطبق الذي قسرت عليه؟ ما وقع مسلك الجندي الحارس وهو واحد لا يتغير؟ كل ما يفعله أن يقدم الطعام للسجين دون أن يلقي عليه نظرة واحدة، أفكار هي دائماً واحدة لا تتغير، تدور في الفراغ حول رأس من انفرد بنفسه إلى أن يصاب بالجنون.

دلتني علامات هينة انزعجت لها أن عقلي قد بدأ يختل، كنت في مبدأ الأمر احتفظ بوضوح ذهني إذا مثلت أمام القضاة، وأدلي بأقوالي بهدوء وتدبر. وافرق بنجاح في ذهني بين ما ينبغي وما لا ينبغي قوله، أما الآن فأصبحت لا أقوى على النطق بعبارة ولو موجزة دون أن أتلعثم، إذ أظل وأنا انطقها اثبت نظرتي كالخاضع للتنويم المغناطيسي على قلم كاتب الجلسة وهو يجري على الورق، كأنما أود أن اجري في إثره وألاحق كلماتي.

أحسست أن قوتي قد ضعفت واقتربت الساعة التي أدلي فيها- طلباً للنجاة- بكل ما اعلم، بل بأزيد مما اعلم، أفضى بأسرار أصدقائي وافضحهم، ولو لم يكن جزائي إلا برهة عابرة من الراحة.

وذات مساء وأنا في حجرتي دخل على الحارس ليقدم لي الطعام، فإذا بي وهو يهم بالانصراف اصرخ إليه بصوت مختنق:

- خذني إلى القضاة، سأعترف بكل شيء، سأقول لهم أين هي الوثائق وأين هي الأموال، سأقول لهم كل شيء، كل شيء.

من حسن الحظ انه لم يستمع لكلامي، أو لعله اعرض عن سماعه.

كنت قد بلغت حافة الهاوية، فإذا بحادثة تقع على غير انتظار، رجوت أن يكون فيها خلاص نفسي ولو لزمن ما، كانت حجرتي قد شملتها عتمة غروب قاتم ليوم من أواخر أيام شهر يوليو، إني اذكر بوضوح زمن الحادثة لأنه مرتبط في ذهني برؤيتي المطر وهو ينهمر على زجاج نوافذ الدهليز وأنا مقود للتحقيق، أشير إلى أن أبقى في حجرة الانتظار، إذ كان من بين قواعد الخطة أن انتظر، يمضي على وقت وأنا في انتظار الدخول إلى القضاة. وتبدأ خطة زلزلة أعصاب المتهم بإيقاظه فجأة في عز الليل، فإذا تمالك جأشه وشد عزمه استعداداً للتحقيق أبقوه ينتظر، ينتظر بلا طائل ساعة وساعتين وثلاث ساعات من قبل بدء التحقيق، كل هذا من اجل أن يسلم وهو صاغر قياد جسمه وروحه.

بقيت واقفاً في حجرة الانتظار لا اقل من ساعتين كاملتين، حدث هذا يوم الخميس ٢٧ يوليو. سأقول لك لماذا بقيت اذكر على وجه التحديد تأريخ ذلك اليوم: وجدت أمامي "تقويماً" معلقاً على الجدار، لم آبه للخدر الذي دب في ساقي وفي جذعي من طول وقفتي- إذ كان الجلوس محرماً علي- وأخذت بدافع التعطش للقراءة ألتهم بعيني رسم تاريخ اليوم على التقويم بحروفه وأرقامه- ما هي إلا عبارة صغيرة لا تزيد عن "٢٧ يوليو"، ثم عدت إلى الانتظار، إلى مراقبة الباب، اسأل نفسي: ترى متى ينفتح؟ أفكر في تخمين الأسئلة التي توجه إلى هذه المرة وأنا عالم أن أسئلتهم ستختلف عما اظنه.

وبالرغم من قلق الانتظار- كنت أحس بشيء من الراحة لانتقالي من حجرتي إلى حجرة أخرى... هي أكثر اتساعاً، تنيرها نافذتان، ليس بها فراش ولا حوض، ليس في جدرانها شقوق مثل تلك التي رأيتها أكثر من ألف ألف مرة في حجرتي، ولون الطلاء أيضاً مختلف، والكرسي أمامي غير كرسي حجرتي، على يسار الباب خزانة ملأى بالملفات، ومشجب معلق عليه ثلاثة أو أربعة معاطف عسكرية مبللة بالماء هي معاطف جلادي.

هكذا اتيح لي أن أرى أشياء جديدة- أخيراً وجدت شيئاً جديداً، والتهمتها نظرتي بنهم وهي تتشبث بها، أخذت أتأمل كل ثنية في قماش المعطف، وانتبه مثلاً لنقطة مطر مستقرة على ياقته المبتلة، وتملكني شغف يبدو لك سخيفاً: أن أظل ارقبها بتلهف لأرى هل تنزلق عن مكانها أم تظل عالقة به، بقيت ارقبها وأنا الهث فترة من الزمن كأنما حياتي معلقة بها، فلما رأيتها تسقط انتقلت إلى عد الأزرار على كل معطف، ثمانية على الأول والثاني وعشرة على الثالث، ثم أخذت أقارن بين شاراتها.

كانت نظرتي تنهل من هذه الأشياء الهينة وترتوي وتتلذذ بشغف لا تستطيع الكلمات التعبير عنه.

ثم دققت نظرتي فجأة على شيء مختلف، شيء انتفخ به جيب معطف فاقتربت وظننت إنني أتبين تحت القماش المشدود شكلاً مستطيلاً يوحي بأنه كتاب، كتاب...

ارتعشت ركبتاي. كتاب. كان قد مضى عليّ أربعة اشهر لم أتناول خلالها في يدي كتاباً، فبهرني مجرد تصور وجود كتاب في جيب المعطف، كتاب اظفر فيه برؤية الكلمات المصففة، والصفحات، والأوراق اقلبها كما أشاء، كتاب يتيح أن اطلع فيه على أفكار رجل آخر، أفكار جديدة، علها تشغلني عن أفكاري، وأستطيع أن احتفظ بها في ذاكرتي، يا لها من لقية مثيرة مسعدة معاً وكأن نظرتي جذبها سحر مغنطيسي فتسمرت على الجيب المنتفخ الذي بان بداخله شكل كتاب، واتقدت نظرتي كأنما تريد أن أحدث ثقباً في جيب المعطف فلم أتمالك نفسي وتقدمت خطوة، سرت النار في أصابعي لمجرد التفكير في أنني سألمس كتاباً ولو من تحت غطاء، وإذا بي أجد نفسي وأنا لا اشعر أتقدم خطوة أخرى.

لم ينتبه الحراس لحسن الحظ إلى غرابة مسلكي، لعلهم رأوا من

الطبيعي أن يعمد رجل ظل واقفاً مدى ساعتين إلى الاستناد إلى جدار الحجرة.

نجحت في الاقتراب من المعطف ووضعت يدي خلف ظهري لألمس بها الجيب خلسة، ودلني جسي له أن بداخله جسماً مستطيلاً غير جامد يسمع له عند الضغط عليه حسيس خافت، كتاب. أي نعم كتاب ولا ريب.

ولمعت في ذهني فكرة كالبرق، حاول أن تسرقه ولعلك تنجح فتخبئه في حجرتك وتقرأه ثم تقرأه، انك واجد أخيراً شيئاً جديداً.

لم تكد هذه الفكرة تخطر ببالي حتى سرت في كياني كالسم الزعاف، أخذت اذناي تطنان، وقلبي يخفق ويداي المثلجتان مشلولتان.

ولما انقضت بوادر دهشتي أخذت التصق بالمشجب بحركة محتالة ماكرة، وأنا لا ارفع نظري عن الحارس، ورفعت الكتاب شيئاً فشيئاً خارج الجيب، ها هو ذا ينفلت أطبقت عليه يدي فإذا هو كتاب صغير قليل الصفحات، حينئذ تملكني الخوف مما فعلت وتمنيت أن لا أكون قد فعلت، ولكني كنت حينئذ قد أصبحت عاجزاً عن التراجع وإصلاح زلتي، سعيت- مبقياً يدي وراء ظهري- حتى أفلحت في دس الكتاب في سروالي من تحت الحزام، وأخذت ادفعه برفق حتى استقر على قمة فخذي، وضع يتيح لي أن اضغط على الكتاب بيدي حين الصقها بزيق سروالي كما تلزمني مشيتي العسكرية المفروضة علي.

أصبح أمامي الآن أن اعرف مقدار نجاح هذه الحيلة، فابتعدت عن المشجب ومشيت خطوة وخطوتين وثلاثاً، نجحت حيلتي ولم يسقط الكتاب ما دمت لاصقاً يدي على زيق سروالي إلى ناحية الحزام.

ثم بدأ التحقيق معي، فاقتضاني جهداً يفوق كل جهد سابق، لأن كل اهتمامي لم يكن منصرفاً إلى التحقيق، بل مركزاً على الكتاب وعلى حيَلتي في إمساكه داخل سروالي.

ومن حسن الحظ أن جلسة التحقيق كانت قصيرة ذلك اليوم وعدت إلى حجرتي بالكتاب سالماً غانماً، لا أحب أن أطيل عليك بذكر ما حدث بالتفصيل، يكفي أن تعلم أن الكتاب انزلق من موضعه وأنا أسير في الدهليز، وكان لا بد لي أن ازعم سعالاً طارئاً قد استبد بي وقوس ظهري.

زعمت هذا من اجل أن أميل على ركبتي وأزحزح الكتاب خلسة لأعيده إلى سابق مكانه، ولكن هيهات لي أن أنسى تلك اللحظة التي عدت فيها إلى حجرتي فأجدني وحيداً- ومع ذلك في رفقة لا تقدر بثمن.

أنت تحسب ولا ريب أنني سارعت حينئذ إلى إخراج الكتاب من مخبئه لأتصفحه واقرأه. "كلا" لم افعل شيئاً من ذلك، إن مجرد وجود هذا الكتاب معي فرحة غمرت قلبي فأردت أولاً أن استمتع بها إلى أقصى مداها، وأخرت عمداً لحظة تصفحي للكتاب لأسبح في أحلام لذيذة تطوف بمضمونه.

تمنيت بادىء الأمر أن تكون حروفه دقيقة جداً وصفحاته ملأى بالأسطر والكلمات مطبوعة على ورق رقيق حتى اظفر بقدر كبير اقرأه.

وتمنيت أيضاً أن يكون كتاباً يعالج موضوعاً عويصاً يتطلب لفهمه جهداً عقلياً كبيراً، أو موضوعاً يلذ حفظه عن ظهر قلب، ديوان شعر مثلاً. وحبذا لو كان- يا لشطط أحلامي- ديوان جوته أو إلياذة هومير وأخيراً غلبني فرط لهفتي وهياج ارتقابي، فرقدت على الفراش في وضع يخفي حركة يدي بحيث لا أثير انتباه الحارس إذا دخل علي فجأة، وأخرجت الكتاب بيد مرتعشة من تحت الحزام.

ما كدت القي إليه نظرة حتى صرعتني الحسرة وخيبة الأمل، هذا الكتاب الذي جازفت باختلاسه أعظم المجازفة، معرضاً نفسي لأفظع الأخطار، والذي ألهب راسي ورفع أحلامي إلى عنان السماء، لم يكن إلا كتاباً عن لعبة الشطرنج. ولو كنت غير حبيس في حجرة مغلقة لطوحت بهذا الكتاب في غيظ شديد، وألقيت به من النافذة، فما انتفاعي بمثل هذا الكتاب؟ قد سبق لي وأنا في المدرسة الثانوية- شأن بقية زملائي- إن لهوت في يوم غلبني فيه الملل بتحريك قطع الشطرنج فوق الرقعة، فكيف انتفع بكتاب لا يتضمن إلا دراسة نظرية لهذه اللعبة، وكيف يتسنى اللعب دون شريك بل دون رقعة الشطرنج وقطعه.

وأخذت أتصفح الكتاب وأنا ضائق الصدر آملاً أن أجد فيه على الأقل سطوراً تقرأ ولو كانت قليلة، مقدمة في أوله أو تنبيهات إلى القارىء. ولكني لم أجد فيه إلا رسوماً لأدوار شهيرة، تحتها رموز لم افهمها أول الأمر، ب٢، ج٤، هـ٥ وهكذا. كانت بمثابة رموز صندوق لا املك مفتاحه.

وقليلاً قليلاً فهمت أن الأرقام ١، ٢، ٣، الخ تشير إلى المربعات الرأسية وان الحروف أ، ب، ج، د، الخ تشير إلى المربعات الأفقية وباقتران الرمزين يمكن تحديد موضع القطعة وكلما تحركت من مربع إلى مربع، هذه الرموز هي بمثابة لغة خاصة.

فقلت لنفسي لعلك تستطيع أن تتخذ من شيء في حجرتك بديلاً للرقعة ثم تحاول أن تلعب هذه الأدوار الوارد ذكرها في الكتاب، وانتبهت إلى أن فراش غطائي مرسوم لحسن الحظ على هيئة مربعات فإذا

طبقته بعناية صح أن يكون رقعة شطرنج من ٦٤ مربعا خبأت الكتاب تحت الحشية بعد أن مزقت أول أوراقه ثم نزعت من الخبز الذي يصرف لي لبانته وعجنت منها أشكالا على هيئة قطع الشطرنج كلها، لم تكن مشابهتها للأصل تامة، ولكني نجحت بعد مشقة كبيرة أن أضعها على غطاء فراشي وأحركها طبقاً لنص الكتاب.

ومع ذلك حين حاولت أن أتم الدور وجدتني عاجزاً عن المضي فيه إلى النهاية، لأني كنت اخلط بين هذه الأشكال المضحكة التي اتخذتها من لبانة الخبز، ذلك أنني لم استطع أن افرز منها نصيب اللون الأسود إلا بفضل علامة هينة التمستها من غبار حجرتي، فاضطررت أن أعيد الدور من أوله عشراً وعشرين وثلاثين مرة، ومن ذا الذي يملك من الوقت أكثر مما املك؟ ومن ذا الذي يقدر على أن يفوقني في اللهفة والصبر معاً؟

وبعد ستة أيام نجحت في أن أتم الدور. ثم بعد ثمانية أيام لم اعد في حاجة إلى هذه الأشكال المضحكة لأحدد مواضع القطع وهي تنتقل حركة بعد حركة إلى أن يتم الدور، وبعد أسبوع استغنيت أيضاً عن غطاء فراشي، ذلك أني حين بدأت اقرأ رموز الكتاب ب١، ج٢، هـ٨ الخ كنت أدرك دلالتها ولكني اعجز عن تصورها لأنها ليست من واقع محسوس، ثم أصبحت اكتفي بتصورها في مجال الخيال وحده وتم انتقال احتياج التصور من الواقع إلى الذهن وحده، فترتسم الرقعة في ذهني، وكذلك القطع أيضاً، بل تتحرك طبقاً لأوامر الكتاب في ذهني أيضاً، أصبحت كالموسيقي المجرب تكفيه نظرة واحدة إلى النوتة حتى يسمع من فوره اللحن الأساسي وما يصاحبه من أنغام هارمونية.

وبعد تدريب استمر خمسة عشر يوماً استطعت أن ارسم في ذهني سير كل الأدوار- الواردة في الكتاب وأدركت حينئذ أي نعمة جليلة خلعتها علي سرقتي له، أصبحت املك وسيلة لإعمال الفكر، وسيلة لا ثمرة لها قد تقول هذا، ولكنها مع ذلك تحررني من اسر العدم.

فقد أصبحت امتلك بفضل هذه الأدوار المائة والخمسين سلاحاً ماضياً ينقذني من رتابة الزمان والمكان.

ولكي احتفظ بطرافة شغلتي الجديدة، قررت أن أضع نظاماً ما اقسم به يومي قسمين، دوران العبهما في الصباح ودوران في العصر، ثم إعادة سريعة بالليل للأدوار الأربعة.

هكذا نظمت وملأت فراغي بدل أن اترك نفسي عائماً لا تقودني إلا نزواتي، ولم أحس بإرهاق، لأن لعبة الشطرنج تختص بميزة عجيبة هي أنها لا تتعب الذهن، بل بالعكس تجدد صفاءه ونشاطه. ذلك أن اللاعب يركز كل قواه الذهنية في حيز محدود، حتى لو كانت مشكلته عويصة.

وكنت أول الأمر انقل القطع وكأن الكتاب هو الذي يحرك يدي ولكني بعد ذلك بدأت انتبه إلى الفكر المسير لهذه الحركات ووجدت في انتباهي هذا لذة كبيرة، وأدركت ما فيه من ذكاء وحيلة لطيفة في الدفاع والهجوم.

ووجدت في تجميع القطع بترتيب معين فناً وأصولاً نفذت لي أسرارها، بل استطعت بعد قليل أن أتبين خصائص أسلوب كل لاعب شهير، كما يتبين الذواقة الخبير وهو يتلو أبياتا قليلة من الشعر أي شاعر نظمها.

هذه اللعبة التي لم أجد فيها أول الأمر إلا وسيلة لقتل الوقت أصبحت عندي متعة ذهنية لذيذة، ووجدتني في صحبة جميلة تنقذني من وحدتي، وأنا أعاشر بذهني أئمة الشطرنج من أمثال اليكين ولاسكار وبوجولجوبوف وتاتاركوبر.

اكتسحت تيارات من التجدد ما في حجرتي من ركود صامت، وعاد لذهني اطمئنانه بفضل سلامة المنطق في هذه التمرينات التي شغلتني، بل إن التزام هذا المنطق بحدود واضحة لا يخرج أبداً عنها أضفى على ذهني صفاء جديداً سرعان ما ظهر في التحقيق. فقد دربتني

رقعة الشطرنج- وأنا لا ادري- على إحكام خطتي في التحقيق وتفادي كل فخ ومكر، وأصبحت قواي لا تتضعضع أمام القضاة، وخيل إلي أنهم بدأوا ينظرون إلي باحترام، لعلهم تبادلوا العجب فيما بينهم، وحاروا في تعليل سبب ثباتي بصلابة على حين يتحطم الآخرون بين أيديهم.

طالت ثلاثة اشهر تقريباً هذه الفترة السعيدة في حياتي، حين كنت العب هذه الأدوار المائة والخمسين التي وجدتها في الكتاب، ثم فرغت جعبتي ووجدت نفسي من جديد في قبضة العدم، فإن لعب الدور الواحد عشرين أو ثلاثين مرة يفقده طرافته ويستنفد سحره.

فما جدوى اللعب إذا كنت احفظ من قبل عن ظهر قلب كل حركة، الحركة الأولى تعقبها الحركة الثانية على التو، هو عمل آلي، لا يمدني بمفاجأة أو مشكلة عويصة اعمل لحلها ذهني.

وكان غير متاح لي أن أجدد هذه المتعة التي أصبحت لا استغني عنها إلا إذا عثرت على كتاب جديد في الشطرنج، يتقدم بي خطوة أخرى، ولم يبق لي من مخرج إلا أن اخترع أدواراً أخرى حاولت أن العبها بيني وبين نفسي، أو إن شئت ضد نفسي.

لا أدري إذا كنت أنت قد فكرت من قبل في اثر الشطرنج- ملك الألعاب- على من يمارسه وكيف يجد نفسه أسير مزاج فريد، انه لعبة لا دخل للحظ فيها، كل سحرها كامن في مسألة واحدة: هي النزال بين ذهنين، كل منهما له خطته المضمرة وأسلوبه، إن هذه المعارك العقلية تنجم من أن صاحب اللون الأسود لا يعرف خطة صاحب اللون الأبيض، فيحاول كل منهما أن يحرز مرمى غريمه ليفسده عليه.

فإذا كان الغريمان هما شخص واحد فإنه سيجد نفسه في تناقض: كيف يجمع بين اتخاذ دور اللاعب صاحب الدور الأبيض ويرسم خططه ويستر هدفه، وبين اتخاذه دور صاحب اللون الأسود ويزعم لنفسه انه

ينسى أو يتجاهل سبل علمه بخطة غريمه، حتى لا تتأثر خطته بسابق علمه هذا ؟

إن هذا الازدواج في الفكر يتطلب ازدواجاً فيه انفصال تام بين وعي ووعي، وهذا يدل على أن الإرادة قادرة على حجز ملكات العقل بعضها عن بعض، كما تفصل في الآلة بعض أجزائها عن بعض.

وحملني الياس على أن اسلم نفسي لهذا العبث عدة أسابيع، إذ كانت ظروف معيشتي تفرض علي هذا الازدواج في ذهني بين نفسي وأنا العب باللون الأبيض، وبين نفسي وأنا العب باللون الأسود.

لا نجاة لي إلا بهذا إن أردت أن لا يحطمني العدم المخيف الذي يحيق بي من كل جانب.

مال السيد "ب" إلى الوراء واسند رأسه إلى الأريكة، ثم أغمض عينيه لحظة، وخيل إلي انه يحاول إقصاء ذكريات مزعجة، وغلبته عادته التي استوقفت نظري ودهشت لها من قبل، فالتوى طرف فمه دلالة على هزة أعصابه، ثم اعتدل محدثي واستطرد:

أظن أن حكايتي إلى الآن قد بدت لك واضحة ولا ادري إذا كان هذا سيكون حالها فيما بقي منها.

إن شغلتي الجديدة كانت تفرض علي توتراً ذهنياً شديداً، أصبح من المحال معه أن املك قياد نفسي، لعلني كنت أجد مخرجاً من مأزقي- وان يكن ضئيلاً- إذا أتيح لي أن أجلس إلى رقعة تلمسها يدي، بحيث يتأتى لي أن أتحول من عالم الخيال إلى عالم الواقع- أمام رقعة وقطع شطرنج أحركها فتترجم أفكاري ويتاح لي التنقل بجسمي من طرف المنضدة إلى طرفها المقابل، واحكم بذلك على سير اللعب تارة من وجهة نظر اللاعب باللون الأبيض وتارة من وجهة نظر اللاعب باللون الأسود.

ولكني كنت مجبراً على أن أنازل خصماً هو أنا، أو إن شئت أنازل نفساً انتزعها من نفسي وافترض وجودها، وكان هذا الازدواج يتطلب

مني أن ارسم بذهني صورة واضحة لتوالي الحركات وما يجده كل لاعب فرصة متاحة أمامه، بل أن ارسم في ذهني أيضاً- وقد يبدو لك هذا القول من قبيل الخرافة ست أو سبع حركات قادمة للاعب من اجل أن ارسم مثلها للاعب الآخر، وما هذان اللاعبان إلا أنا.

أصبحت صاحب ذهنين منفصلين واحد ابيض والآخر اسود، فبهذا وحده أستطيع أن العب بالخيال في فراغ، وان ارسم في الفراغ أيضاً حركات كل خصم من الخصمين طبقاً لخطته.

وكان اكبر خطر يتهددني لا يكمن فحسب في هذا الازدواج الذهني داخل نفسي، بل في أن المعركة كلها لا تجري إلا في عالم الخيال. كادت قدمي تنزلق فجأة وأتردى في هوة الجنون.

كنت من قبل- إذا أعدت دوراً من الأدوار الشهيرة في الكتاب- لا أقوم بعمل يزيد عن نقل صورة عن اصل، لا يتطلب مني جهداً يفوق جهد تذكر قصيدة أو نص مادة في حدود ضيقة، داخل ذهن تربيته خاضعة لنظام وقواعد شأن تربية التلميذ في المدرسة.

وداومت في غير لهفة واضطراب على لعب دورين في الصباح ومثلهما في المساء، وأصبح اللعب شغلتي المألوفة وكنت إذا هفوت أثناء اللعب أو ترددت طلبت النصح والعون من الكتاب.

وإذا كنت قد وجدت في هذه الشغلة نجاتي فإنما يرجع الفضل إلى أنني كنت أنا نفسي غير نازل في الميدان، لا يهمني في شيء أن يكسب الأبيض أو الأسود، انه نزال بين لاعبين شهيرين يبتغي كل منهما الوصول إلى مرتبة البطولة، أما لذتي أنا فهي لذة المتفرج أو الخبير الذي يراقب بمتعة سير المنازلة وبراعتها وجمالها.

وفي اللحظة التي ابدأ فيها هذا اللعب المزدوج، كنت اعتبر بلا وعي مني أن المسألة ليست مسألة تسلية، بل مسألة تحد سافر ومضمر، وان هناك نزالاً بين اللون الأبيض الذي هو أنا، وبين اللون الأسود الذي هو أنا.

كل منهما يريد الانتصار على الأحزان، إن رسم ذهني للحركات القادمة للون الأبيض يلهب فكري وأنا العب باللون الأسود، كل خصم من الخصمين داخل نفسي يجمع بين الفرح والضيق حين يرتكب الآخر هفوة.

حياة لا معنى لها أنها كانت كذلك لو أنها كانت لرجل من سوية البشر ظروفه سوية أيضاً، إنها حكاية لا تصدق حكاية كيف تؤدي هذه الحالة إلى فصام ذهني والى ازدواج في الشخصية عسير على الناس تصوره، ولكن لا تنس أنني كنت رجلاً قد تم انتزاعه بقسوة وعنف من الجو الذي كان يعيش فيه واعتاده، كنت سجيناً بريئاً، تفترسه الوحدة بعذابها منذ اشهر، رجلاً تراكم الغضب في قلبه دون أن يتاح له صبه على شيء أو على رأس إنسان، لم تكن أمامي من تسلية إلا هذا اللعب السخيف مع نفسي، وصببت فيه بعنف سخطي وتلهفي على الانتقام، كان بداخلي رجل يريد أن يدافع عن حقوقه فلا يجد له منازلة إلا مع هذا الخصم الذي يلاعبني وما هو إلا أنا ،لذلك أثار فيّ هذا اللعب هياجاً هو أشبه بالجنون، كنت أستطيع في مبدأ الأمر أن العب بهدوء وأتريث بين الدورين لأستريح قليلاً، ولكن سرعان ما أبت أعصابي المتوترة أن تسمح لي بالتريث، فإذا لعبت باللون الأبيض ناداني اللون الأسود وألح علي أن العب به، وما يكاد الدور ينتهي حتى يهتز نصف نفسي رغبة في أن أتحدى النصف الآخر، إذ كان بين جنبي دائماً لاعب خاسر يجأر بطلب الانتقام.

لا أستطيع أن احدد ولو على وجه التقريب عدد الأدوار التي لعبتها على هذا النحو وأنا متكالب لا اهدأ، ربما لعبت ألف دور، وربما أكثر، كنت كمن تملكه شيطان لا خلاص منه، ليس في رأسي طوال اليوم إلا "كش الملك. مات الملك"، وعيني لا ترى إلا بيادق وفيلة وقلاعاً، كل كياني وإحساسي مركزان على مربعات قطعة شطرنج.

كان اثر اللعب عليّ أول الأمر هو الفرح، ثم سرعان ما انقلب الفرح إلى تلهف عنيف، والتلهف إلى انصياع الأسير، ثم إلى لوثة وهوس، فهياج جنوني يلفني بالليل والنهار. لا شيء يشغلني إلا الشطرنج ومسائله وقطعه، استيقظ أحياناً بالليل والعرق يتصبب من جبيني فأتبين أنني كنت وأنا نائم لم انقطع عن اللعب، وإذا رأيت في الحلم أناساً من البشر لا أجدهم يتحركون إلا حركة الفرس أو الفيل أو القلعة.

واختلط على فكري حين كنت امثل أمام القضاة، وخيل إلي أنني لم انطق في الجلسات الأخيرة إلا بكلام مبهم غامض، بدليل أن القضاة تبادلوا النظرات فيما بينهم.

هم يتابعون التحقيق ويتشاورون أما أنا ففكري مشغول بشيء واحد هو انتظاري بدافع من هيام لا ينقطع نهمه لحظة أن ارجع لحجرتي لأعود إلى اللعب الجنوني، العب دوراً ثم دوراً... كل معوق عن اللعب يغيظني ولا أطيقه، فأتململ إذا دخل الحارس حجرتي ليكنسها مع انه لا يبقى بها أكثر من ربع ساعة أو حتى حين يدخل ليقدم لي الطعام فلا يمكث إلا دقيقتين، وربما تركت الطعام في الطبق إلى المساء دون أن أمسه إذ كنت قد نسيت أن آكل.

لا شيء يرهقني إلا عطش شديد يلهب أحشائي، لعل مرجعه هو ما يصيبني اللعب به من الحمى، أو هو من اثر زحمة الأفكار وتصادمها في راسي.

كنت اشرب الإناء كله جرعة واحدة ثم أناشد الحارس أن يأتي لي بمزيد، ولا افرغ من الشرب حتى يجف حلقي من جديد لشدة العطش.

وازداد الهياج حتى بلغ درجة أصبحت معها لا أطيق الجلوس على الكرسي لحظة لا اشغل نفسي طول النهار بشيء إلا باللعب، وان اذرع الحجرة جيئة وذهاباً بخطوة تزداد سرعة وعجلة كلما ازداد اقتراب الدور من نهايته.

إن شهوة كسب الدور والانتصار، الانتصار على نفسي أنا تحولت إلى هوس وهياج جنوني للانتصار، للانتصار على نفسي.

تحول شيئاً فشيئاً إلى نوع من الهياج الجنوني فأجد جسدي ينتفض من شدة اللهفة إذ أن كل لاعب من اللاعبين الاثنين داخل نفسي يتململ إذا رأى غريمه لا يسرح كما يهوى هو في اللعب.

كل منهما يلاحق الآخر ويؤنبه وهو حانق عليه، بل كنت أنا نفسي أشارك في هذا الحنق- قد يبدو لك هذا القول غاية في السخف إذا رأيت احد اللاعبين يتلكأ وازعق له: هيا هيا العب بسرعة، بسرعة.

اعلم اليوم ولا ريب أن حالتي آنئذ كانت حالة رجل أصيب بمرض عقلي سافر، لا اسم له عندي إلا "هوس إدمان الشطرنج" على غرار هوس إدمان الخمر، وأظن أن كتب الطب لم تدرجه بعد بين الأمراض العقلية وكانت هذه اللوثة قد سممت روحي وكياني، فلحقني الهزال واضطرب نومي.

وكنت أجد جفنيّ حين استيقظ في ثقل الرصاص فلا افتحهما إلا بمشقة، وزاد ضعفي حتى أن يدي أصبحتا لا تقويان على رفع كوب إلى شفتي إلا بارتعاش وجهد بالغ، ولكن ما أكاد أبدأ اللعب حتى أجد نشاطي يتقد بدافع من قوة وحشية، اذهب وأجيء ويداي مضمومتان، واسمع أحياناً كثيرة وكأنما من خلال ضباب ملوثة بالحمرة- صوتي أنا يأتيني من بعيد هاتفاً بلهجة جافة قبيحة "كش الملك. مات الملك".

لا أستطيع أن اصف لك اليوم كيف حدثت الأزمة. غاية ما اعرفه أنني استيقظت ذات صباح على حال غير حالي المألوفة لي كل يوم، أحسست أن جسدي قد نجا من استبدادي وشاق له أن يبقى مسترخياً في الفراش وشعرت بتعب شديد لم اعهده من سابق منذ شهور، هو الذي أثقل جفني وأذاقني سعادة كبرى، هي سعادة الشعور بالراحة وانقشاع العناء، فلم أشأ أن افتح عيني على الفور وبقيت بضع دقائق على هذا الحال أتنعم في كسل لذيذ باسترخائي فوق فراشي.

وفجأة خيل إلي أنني اسمع من خلفي أصوات أناس تتدفق فيها الحرارة والحياة، ويدور على ألسنتهم كلام هادىء هيهات لك أن تتصور مقدار حبوري- أنا الذي لم اسمع منذ شهور من قضاتي إلا لهجة جافة قبيحة فقلت لنفسي: أنت تحلم. أنت تحلم فإياك أن تفتح عينيك، وأدم عليك دنيا الأحلام بدلاً من أن تعود ترى من جديد حجرتك الملعونة والكرسي والحوض ونقش الورق الراسخ كالأزل... أنت تحلم، استمر في حلمك.

ولكن حب التطلع غلبني، ففتحت عيني على مهل وبحذر، ويا لشدة العجب! وجدت نفسي في حجرة أخرى حجرة أفسح من حجرتي، يدخل إليها النور حراً من خلال نافذة ليس عليها سياج من حديد، ورأيت من ورائها- بدلاً من الجدار الكئيب الذي طالما الفته- أشجارا خضراء يراقص الريح أوراقها، الحجرة مطلية بلون ابيض لامع، وغطاء الفراش ابيض أيضا، نعم، حقاً كنت في فراش آخر غير فراشي، فراش جديد علي، إنني إذن لم أكن احلم، فها هي ذي أصوات الناس تتحدث برفق خلفي.

لا شك أنني هجت حين فوجئت بهذا كله، إذ اتجهت نحوي على الفور خطى مسرعة، واقتربت مني امرأة على رأسها غطاء ابيض تمشي مشية نشطة، إنها ممرضة!

أخذتني هزة من الفرح والسرور إذ كنت لم أر امرأة منذ سنة. لا ريب أنني حملقت إلى هذا الطيف الجميل بنظرات فيها توهج السعادة ولها لهيب إذ قالت الممرضة لي "اهدأ. اهدأ ولا تتحرك لم أكن القي بالي إلا لسماع نبرة صوتها لأنها- أخيراً!- نبرة صوت إنسان، إذن فالدنيا لا يزال بها أناس هم غير قضاة وغير جلادين، لا يزال بها- يا للمعجزة! هذه المرأة ذات الصوت الرقيق العطوف الذي يكاد ينطق بالحنان.

وثبتت نظرتي على هذا الفم الذي تحدث إلي بطيبة، إذ أن هذا العام اللعين الذي قضيته في حجرتي كان قد أنساني أن الطيبة لم تمح من عالم البشر.

وابتسمت الممرضة لي، نعم ابتسمت إذن فالدنيا لم تخل من أناس يبتسمون.

ابتسمت ثم وضعت إصبعها على شفتيها محذرة لي، ثم ابتعدت.

أفيتأتى لي أن أطيعها ؟ عصيتها- على الضد- وبذلت جهداً كبيراً من اجل أن اعتدل واجلس فوق الفراش لأتأملها بنظرتي، لأتأمل مرة أخرى هذا المخلوق السمح الذي هبط علي هبوط المعجزات، وأردت أن استعين بيدي فلم استطع، إذ كانت اليمنى مختفية في لفائف من قماش ابيض، لا شك أنها ضماد.

تأملتها أول الأمر بدهشة ثم بدأت أدرك على مهل أين أنا، وأفكر فيما يمكن أن يكون قد حدث لي، لا ريب أنهم أصابوا يدي بجرح أو لعلي جرحتها أنا نفسي وهذا هو سبب وجودي بالمستشفى.

وزارني طبيب عصر ذلك اليوم، رجل شيخ طيب، لم يكن اسمي مجهولاً عنده، وتحدث عن عمي طبيب الإمبراطور بكل احترام.

وأحسست على الفور انه يريد لي الخير، ووجه إلي أثناء الحديث أسئلة عديدة من بينها سؤال عجيب له، إذ قال لي:

- هل أنت متخصص في الكيمياء أو الرياضة؟

فنفيت له ذلك فتمتم.

- عجيب! انك كنت تنطق في هذيانك بأرقام وحروف مثل ج٣ وهـ٨ عبارات لم نفهم نحن منها شيئاً.

سألته عما حدث لي فابتسم ابتسامة غريبة وقال:

- شيء غير ذي خطر، إنها أزمة عصبية حادة.

ثم تمتم بصوت خافت وهو يلقي من حولي نظرة مستريبة.

- هذا شيء طبيعي، فأنت بقيت هناك منذ ١٣ مارس. أليس كذلك.

أومأت له برأسي نعم، فغمغم.

- هذا ليس بالغريب. انه متوقع من خطئهم، ولست أنا الأول، ولكن دع عنك الآن كل قلق.

أحسست من لهجته ونظرته إلى أنني أصبحت في يد مأمونة.

وفي زيارة له أخرى بعد يومين اخبلاني بما حدث أن الحارس سمعني وأنا أتحدث في حجرتي بصوت مرتفع يشبه الصراخ، فظن لأول وهلة أن بها معي رجلاً غريباً، وإنني تلاحمت وإياه في عراك شديد، لم يكد الحارس يفتح الباب ويدخل حتى هجمت عليه وكنت اصرخ صرخات وحشية.

- هيا. هيا أيها الوغد، أيها الجبان.

ثم حاولت أن أطبق يدي بعنف على رقبته فصرخ يطلب النجدة وحملوني إلى الطبيب فأفلحت وهم سائرون بي في أن أتملص من قبضتهم- وقذفت بنفسي إلى نافذة الدهليز في نوبة من الهياج الجنوني، فكسرت زجاجها وأصابني بجرح في يدي- ها أنت ذا ترى أثره إلى اليوم- كنت أصبت بشيء يشبه الحمى المخية حين نقلوني إلى المستشفى، ولكني عدت سريعاً إلى وعيي...

وهمس لي الطبيب الطيب القلب.

- بطبيعة الحال لن أقول لهؤلاء السادة انك تماثلت للشفاء، فإنهم قادرون على أن يبدأوا معك من جديد، واعتمد علي، إنني باذل كل جهدي من اجل إنقاذك.

واجهل أي تقرير قدمه هذا الصديق العزيز إلى جلادي، الذي حدث هو استجابتهم إلى طلبه- أي الإفراج عني، لعله شهد لهم بأنني رجل معتوه، أو لعلهم هم رأوا أن شخصي لم يعد يهمهم، لأن هتلر كان احتل

تشيكوسلوفاكيا، وأيقن أن سلطانه على النمسا أصبح مأموناً لا يخاف عليه.

وقدمت تعهداً بأن أغادر الوطن في بحر خمسة عشر يوماً، وغرقت خلال هذه الفترة كلها في إجراءات السفر للخارج كما هي معهودة اليوم، استخراج شهادات من إدارة القرعة ومن الشرطة، الحصول على جواز سفر وتأشيرة للخروج وتأشيرة لدخول البلد الذي اقصده وشهادة طبية، فلم يبق لي وقت للتفكير في الماضي.

ويخيل إلي أن في المخ قوى خفية منظمة، تستبعد فوراً، ومن تلقاء ذاتها، كل ما يصيب الروح بضرر، وبسبب هذا كنت إذا حاولت استعادة فترة السجن في ذهني، خانتني ذاكرتي ولم تسعفني، ثم لم استطع أن استعيد في ذهني ما حدث لي إلا بعد أسابيع عديدة، حين وجدتني على ظهر السفينة.

أنت ولا ريب تدرك الآن لماذا عاملت أصدقاءك معاملة شاذة، كنت اقضي الوقت في حجرة التدخين بين كسل وتراخ، فإذا بي أرى هؤلاء السادة يجلسون إلى رقعة الشطرنج، فسمرني في مكاني شعور بالدهشة والخوف، إذ كنت قد نسيت تمام النسيان انه في الامكان لعب الشطرنج على رقعة ملموسة وبقطع مرئية، نسيت انه لعبة تتطلب لقاء شخصين مختلفين يتخذ كل منهما مقعده تجاه الآخر، واعترف لك انه لزمني بعض الوقت لأتبين أن هؤلاء السادة مقبلون على عين اللعبة التي كنت العبها في محبسي، حين كنت اعمد من شدة اليأس إلى أن العب بنفسي، ووضح لي أن الأرقام والحروف التي كانت عدتي في تدربي العصيب على لعبة الشطرنج ليست إلا رموزاً للقطع والمربعات.

وكان لذهني حين رأيت أن حركة القطع الملموسة على الرقعة تطابق حركات القطع الموهومة في خيالي دهشة تماثل دهشة الفلكي بعد أن يحدد على الورق وبالحساب وحده، موقع نجم، ثم يرى فجأة جرم هذا النجم يتلألأ لعينه لأول مرة في صفحة السماء.

ثبتت نظرتي على الرقعة لأشاهد عليها كيف أن أرقامي وحروفي تجري ترجمتها إلى حركات، فرس وقلعة، ولزمني لكي احكم على مركز كل من الخصمين أن انقل رموزي من عالم الخيال إلى ما يجري في عالم الواقع الذي تراه عيني، وشيئاً فشيئاً غلبني الشوق فنسيت كل أدبي وتدخلت في اللعب، إن الهفوة التي أوشك أن يقدم عليها صديقك، كانت بمثابة طعنة في قلبي، فأمسكت ذراعه بحركة غريزية وبلا تفكير كما تمسك بطفل يغالي بالميل بجسمه فوق سور شرفة، ولم أدرك إلا فيما بعد سماجة فعلتي.

سارعت إلى تطمين السيد "ب" وقلت له إننا جميعاً نشكر هذه الصدفة التي أتاحت لنا معرفته، وأضفت متحدثاً عن نفسي أنني شديد اللهفة بعد سماع حكايته على مشاهدة لعبه في الغد...

بدا عليه شيء من القلق وقال:

لا تفرط في الوهم إن الأمر بالنسبة إلي لن يكون إلا بمثابة تجربتي لنفسي، نعم أريد أن اعرف ما إذا كنت قادراً على لعب الشطرنج كما يلعبه بقية الناس على رقعة ملموسة وقطع مرئية، وضد خصم كائن أمامي، إذ لا يزال يخامرني شك في قدرتي على أن افعل هذا، فهل هذه الأدوار المائة أو الألف التي لعبتها وحدي جرت طبقاً للقواعد وللأصول؟ أو أنها أوهام خيال تشبه هذيان محموم يتخطى في قفزة صلات الواقع بين فعل وفعل.

ثم استطرد

- أنت يا صاحبي غير جاد فيما أرجو إذا ظننت أنني سأطاول بطلاً عالمياً أو انتصر عليه... الشيء الوحيد الذي يهمني هو أن اعرف بدليل قاطع ما إذا كنت قد لعبت الشطرنج حقاً في حجرتي بالفندق، أو أنني كنت حينئذ مجنوناً، أو بكلمة واحدة: أريد أن اعرف هل جاوزت الآن أم لم أتجاوز بعد منطقة الخطر، هذا هو غرضي الوحيد من اللعب غداً.

سمعنا آنئذ رنة "الجونج" تدعونا إلى العشاء وكان حديثنا قد دام ساعتين تقريبا لأنني رويت هنا كلام السيد "ب" بشيء كثير من الاختصار، فشكرته بحرارة وودعته، ولكني لم أكد ابتعد عنه حتى جرى خلفي، وقال في هياج بلغ من حدته أن كلامه انقلب إلى فأفأة:

كلمة أخرى، لا أحب أن يسوء أدبي مرة ثانية، قل لأصدقائك إنني لن العب إلا دوراً سيكون نهاية حكاية قديمة وخاتمة قاطعة لا بداية من جديد، إذ لا أود ابدأ أن تفترسني ثانية حمى اللعب أو جنون اللعب، كلما ذكرت ذلك سرت الرعدة في بدني، بل إن الطبيب حذرني بكلام صريح من العودة للعب، فإن الرجل الذي يصاب بلوثة قد ينتكس رغم شفائه، وانه من الخير لرجل ناله مثلي هذا الخمر أن لا يقترب مرة أخرى من رقعة الشطرنج. أنت تفهم حالي، إنني لن العب إلا دوراً وحيداً لأطمئن. هذا هو كل شيء.

وفي تمام الساعة الثالثة من الغد اجتمعت زمرتنا في حجرة التدخين، وانضم إلينا ضابطان من طاقم السفينة، هما من هواة الشطرنج بعد أن حصلا على إذن خاص بمشاهدة اللعب.

لم يتركنا "زينتوفيك" ننتظره هذه المرة، وبدأت مباراة هيهات أن تنسى، نازل فيها مواطني المجهول بطلاً تحف رأسه هالة المجد، واني لشديد الأسف أن هذه المباراة جرت أمام أناس لا يبلغون مقامهما، وأنها لم تسجل فضاع خبرها كما ضاعت الألحان التي كانت تجري بها أصابع بيتهوفن على البيانو من وحي الساعة... قد حاولنا بطبيعة الحال في اليوم التالي أن نعتمد على الذاكرة وحدها في تسجيل سير المباراة، ولكننا لم نفلح، لأن اهتمامنا كان إلى اللاعبين لا إلى المباراة بحيث شق علينا تسجيلها فيما بعد.

إن التناقض العقلي بين اللاعبين زاد تمثله في مسلك كل منهما أثناء المباراة، زينتوفيك جامد متصلب يلعب وهو أسير خبرته، لا يهتز ولا يرفع بصره عن الرقعة أما التفكير فإنه يقتضي منه بذل جهد جسماني يشد كل أعصابه، على حين أن السيد "ب" بقي طليقاً ناجياً من الأسر، انه يمثل أرقى درجات الهواية ولا يرى في اللعب إلا وسيلة لتسلية لذيذة، انه يشرح لنا بغير مبالاة بين كل حركة وحركة معنى ما يفعل، ويشعل سيجارة بيد مرتعشة ولا يلقي نظرة إلى الرقعة إلا قبل أن يلعب حركته ببرهة وجيزة. هذا هو شأن لاعب يحبس من قبل خطة خصمه.

سار اللعب حثيثاً أول الأمر ثم وصل بعد الحركة السابعة أو الثامنة

إلى وضع ينم عن أن لكل لاعب خطة ثابتة مدبرة، وبدأ زينتوفيك يطيل تفكيره وفهمنا من ذلك أن المباراة قد بدأت حدها من الجد.

وكان ينبغي لي إن أردت الصدق أن أقرر أن وقع المباراة علينا نحن المشاهدين المبتدئين لم يكن إلا خيبة الأمل، فكلما توالى تجمع القطع في أشكال زخرفة هندسية زاد عجزنا عن فهم معناها الخبيء، لا نصل إلى إدراك مرمى كل لاعب، ولا تبين الظفر إلى أي جانب يميل، كل ما نراه هو قيام اللاعبين بسوق القطع على قائدين للجند لإحداث ثغرة في حصون العدو، نرى سير المعركة ولا نفهم هدفهما المنشود، فإن اللاعب الخبير مثلهما يدير خطته من قبل بمقدار عدة حركات سابقة.

واقترن جهلنا قليلاً بتعب أحسسنا به وبخاصة في فترات التريث الطويلة التي يدوم فيها تفكير "زينتوفيك"، وكان واضحاً أن اللاعب النمساوي يضيق ذرعاً بهذا البطء، وأخذت الحظ بقلق انه بدأ يتململ في جلسته، يشعل في هياج سيجارة اثر أخرى، أو يخط ملاحظة بيد عجلى ويطلب زجاجات من المياه المعدنية يفرغها على الفور في جوفه وكان واضحاً انه أسرع من "زينتوفيك" مئة مرة في تدبر حركته إذا وصل زينتوفيك بعد تفكير طويل إلى قرار وقام بتحريك قطعة بيده الثقيلة رأينا صاحبنا يبتسم شأن من توقع هذه الحركة منذ زمن طويل، ورد عليه من فوره بحركة منه، إن ذهنه ولا ريب يعمل في سرعة شديدة بحيث يدرك كل احتمالات الانتصار الباقية لخصمه وكلما زاد بطء "زينتوفيك" زاد قلق غريمه، وتقلصت شفتاه دلالة على الغضب بل العداء.

ولكن "زينتوفيك" لم يبال قط بمثل هذه المنغصات الهينة، بل كلما قل عدد القطع على الرقعة زاد تفكيره وطال، وان بقي لا يتحول عن عبوسه وصمته، وحين بلغت المباراة الحركة الثانية والأربعين كانت قد دامت ساعتين وثلاثة أرباع الساعة، وكففنا نحن عن متابعتها إلا بنظرة سارحة مضعضعة، كان احد الضابطين قد غادرنا وبقي زميله يقرأ في

كتاب، ولا يلقي نظرة إلى الرقعة إلا حين يقوم احد اللاعبين بتحريك قطعة.

وفجأة حدث شيء مفاجيء غير متوقع، كان الدور في اللعب على "زينتوفيك"، ووضع سبابته على قطعة الفرس ليحركها، فإذا بالسيد "ب" حين رأى هذه الحركة يتضام جسده كالهرة على وشك أن تثب، وبدأ يرتعش وقدم قطعة الوزير بحركة ثابتة ثم صرخ بلهجة الانتصار:

- انتهينا، هذا هو القول الفصل.

ثم مال للوراء وعقد ذراعيه على صدره ورمى "زينتوفيك" بنظرة تتحداه وتلمع بلهيب دفين.

انكفأنا على الرقعة لنرى دليل الانتصار الذي أعلنه علينا، فلم نر أول الأمر شيئاً يهدد "زينتوفيك" بالخطر، وقلنا لا شك أن صرخة صاحبنا ستجد مصداقها في حركة قادمة، يشق علينا نحن الهواة المبتدئين قصار النظر أن نراها من قبل، وبقي "زينتوفيك" وحده جامداً غير آبه بهذه الصرخة كأنه لم يسمعها، ثم لم يحدث شيء، الساعة الموضوعة على المنضدة لتقيس الفترة المحددة بين كل حركة وأخرى تسمعنا دق رقاصها وسط صمت مطبق مضت ثلاث دقائق، ثم سبع، ثم ثمان، هذا و"زينتوفيك" باق على ثباته لا يتحرك ولا يهتز، وعلى ذلك خيل إلي أن سعة منخريه الثقيلين قد زادت من اثر جهد يبذله.

شق على السيد "ب" كما شق علينا احتمال هذا الانتظار فنهض قفزاً من مقعده واخذ يذرع حجرة التدخين جيئة وذهاباً، بخطى بطيئة أول الأمر، ثم زادت سرعتها درجة بعد درجة، وراقبته الزمرة كلها بشيء من الدهشة، أما أنا فقد تملكني القلق فقد تبينت انه رغم حنقه ينقل خطاه في حيز محدود، بحيث يظن من يتأمله أن في وسط الحجرة حاجزاً غير مرئي يصده ويجبره أن يعود القهقرى، وأدركت وأنا ارتعد انه يكرر في حجرة التدخين مشيه المحدود داخل مجال حجرته في الفندق، لا بد انه

كان هكذا يمشي- الشهور الطوال كالوحش في قفصه، يداه متوترتان، وكتفاه غائران ونظرته الثابتة المحمومة تشع باحمرار وميض الجنون.

غير انه ظل مع ذلك في حجرة التدخين مالكاً لزمام نفسه، يلتفت بين الحين والحين وهو نافذ الصبر إلى المنضدة ليرى ما إذا كان "زينتوفيك" قد لعب حركته.

تسع دقائق، عشر دقائق مرت هكذا، ثم حدث شيء لم يكن احد منا يتوقعه رفع "زينتوفيك" يده الثقيلة ببطء فعلقت به أنظارنا، لنرى ماذا عساه أن يفعل، ولكن "زينتوفيك" لم يلعب، بل يعثر قطع الشطرنج بظهر يده، ولم ندرك على الفور انه يعني بذلك تخليه عن المباراة وانه يستسلم قبل أن نرى هزيمته حين تقع.

إذن حدث أمامنا ما لا يصدقه العقل:

هذا بطل عالمي فاز في عديد المباريات يلقي سلاحه لرجل مجهول، لرجل لم يمس رقعة شطرنج منذ خمس وعشرين سنة وهذا صاحب لنا مجهول ينتصر على امهر لاعب في العالم، أمام حشد من الناس.

نهضنا من مقاعدنا ونحن من الهياج في غفلة مما نفعل، كان كل منا يحس انه ينبغي له أن يفعل شيئاً أو يقول شيئاً، لينفس عن انبهاره وجذله أما الوحيد الذي ظل جالساً فهو زينتوفيك ولبث هكذا فترة طويلة رفع رأسه بعدها وصوب إلى صاحبنا نظرة قاسية ثم سأله:

- هل لك في دور آخر؟

أجابه السيد "ب" بحماس انقبض له قلبي.

- بكل تأكيد.

ثم جلس من قبل أن ألحقه وأنبهه إلى سابق وعده بان لا يلعب إلا دوراً واحداً...

وبدأ في سرعة محمومة يصف القطع، وبلغ من شدة رعشة أصابعه أن فلت منه بيدقان وتدحرجا على الأرض، وتحول الضيق الذي خلفه من

فرط هياجه إلى لوعة بالغة، من الواضح أن هذا الرجل الهادىء المسالم قد غاله العناد والهوس، وعادت هزته العصبية تلوي ركن فمه واخذ جسده كله يرتعش كأنما سرت فيه حمى مفاجئة.

همست إليه برفق:

- حلمك! لا تلعب، يكفيك اليوم دور واحد فأنت متعب.

اندفع بقهقهة ووجهه ينطق بشراسة مذمومة:

- هاها! متعب! إنني كنت أستطيع أن العب سبعة عشر دوراً لولا هذا البطء، لا يكربني منه إلا أنني أبقى معه متقد الذهن يقظاً بلا طائل.

ثم التفت إلى زينتوفيك وقال له بلهجة عنيفة، بل تكاد تكون غير مهذبة:

- أنت الذي يبتدىء.

ألقى عليه زينتوفيك نظرة هادئة متأنية ولكنها تشبه في قسوتها لكمة من قبضة يد.

أصبح كل خصم يواجه خصمه يتوتر خطر وكراهية طاغية، لم يعد الاثنان زميلين في لعبة يحاول كل منهما أن يلتمس منها شيئاً من إثبات تفوقه أصبح حالهما حال عدوين اقسم كل منهما أن يحطم الآخر.

صبر زينتوفيك طويلاً قبل أن يلعب حركته الأولى، وخيل إلي انه يفعل ذلك عن عمد، لا جرم انه أدرك أن البطء يثير خصمه ويغيظه فاستغله كسلاح شأن الخبير المدرب.

وبعد أربع دقائق طال مرها علينا افتتح زينتوفيك اللعب بحركة بسيطة مألوفة بأن قدم بيدق الملك خطوتين إلى الأمام.

فكان رد السيد "ب" أن قلده وفعل مثلما فعل.

توقف زينتوفيك من جديد، لا يتخلى عن البطء الذي يغيظ خصمه وكانت قلوبنا تخفق ونحن ننتظر، شأن من يرى البرق وإذا انتظر جلجلة

من بعده وجدها تغيب ثم تغيب، وزينتوفيك ثابت لا يهتز، يفكر في هدوء وبطء، وتبينت بصورة أوضح انه يفعل ذلك عن عمد وخبث، ومع ذلك حمدت هذا البطء لأنه اتاح لي أن أتأمل السيد "ب" ملياً... كان قد شرب ثلاث زجاجات من المياه المعدنية متذكراً عطشة الذي كان يلهب جوفه في سجنه، ظهرت لي على هذا الرجل المسكين علامات الهياج المريض، جبينه مبلل بالعرق، واثر الجرح في يده زاد نطقاً واحمراراً وبقي على ذلك زمناً وهو مالك لزمام نفسه، ولكنه بعد الحركة الرابعة- حين رأى زينتوفيك يطيل تفكيره انفجر وصرخ فيه:

- العب! ماذا بك؟.

رفع إليه زينتوفيك عيناً باردة وقال:

- لقد اتفقنا- إن لم اخطىء- على أن فترة التريث بين كل حركة وأخرى مسموح لها أن تمتد إلى عشر دقائق وأنا من مبدئي أن لا العب بسرعة أكثر من سرعتي هذه.

عض السيد "ب" شفته وبدأت ساقه من تحت المنضدة تعلو وتنخفض بسرعة لا ينقطع تزايدها. انه سيفقد وعيه، وهذا ما توقعته.

وحينما وصلنا للحركة الثانية وبدأت فترة التريث وقع حادث جديد، كان السيد "ب" قد صبر من قبل لفترات التريث بضيق متزايد، فإذا به هذه المرة يفقد سيطرته على نفسه واخذ يميل إلى الوراء والى الأمام وينقر بسبابته على المنضدة.

رفع إليه زينتوفيك رأسه الثقيل وقال:

- أرجوك، من فضلك لا تنقر على المنضدة بسبابتك لأن هذا يزعجني، إنني لا أستطيع اللعب إذا سمعت ضجة.

ضحك السيد "ب" ضحكة خاطفة وقال:

- ها، ها، هذا ما اتبيته.

احمر وجه زينتوفيك وأجاب بصوت قاس شرس:

- ماذا تعني بقولك هذا ؟

فعاد السيد "ب" يضحك من جديد ضحكة جافة شريرة وقال:

- لا اعني شيئاً، كل ما في الأمر أن أعصابك هائجة.

أحنى زينتوفيك رأسه وصمت، وصبر سبع دقائق قبل أن يلعب حركته التالية وسار الدور بعد ذلك على البطء المميت، وزاد جمود زينتوفيك حتى بلغ درجة التحجر، وتوالى ازدياد غرابة مسلك غريمه، وبدأ عليه كأنما نسي اللعب وشغل نفسه بشيء آخر كان قد كف عن ذرع الحجرة ذهاباً وإيابا واستقر على مقعده لا يتحرك، ينظر إلى الفضاء أمامه نظرة شاخصة شاحبة، وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة... هل هو مستغرق في التفكير في وضع خطط للعبة لا نهاية لها ؟

أم هل بدأ يلعب دوراً جديداً في ذهنه كما ظننت؟

وأصبح لا مفر لنا من تنبيهه إذا جاء دوره في اللعب، فلا يقتضيه تدبر حركته إلا دقيقة واحدة، ومع ذلك زاد يقيني بأنه نسينا جميعاً- نسينا نحن وزينتوفيك أيضاً، وانه أصبح فريسة لنوبة من الجنون البارد يتوقع لها أن تنفجر بين لحظة وأخرى.

وقد حدث هذا فعلاً عند الحركة الرابعة عشرة، إذ لم يكد زينتوفيك يفرغ من حركته حتى قدم السيد "ب" قطعة الفيل صفوفاً ثلاثة دون أن ينظر إلى الرقعة وصرخ صرخة أفزعتنا:

- كش الملك. مات الملك.

انكفأنا على الرقعة نحاول أن نفهم كيف انتصر، ولكن حدث بعد لحظة حادث لم يكن احد منا يتوقعه.

رفع زينتوفيك رأسه شيئاً فشيئاً في بطء شديد وجال ببصره علينا وكان لم يسبق له أن فعل ذلك، ورأينا على شفتيه ابتسامة ملؤها الهزء والرضى كأنما يشعر بسرور لا حد له، ولما فرغ من تذوق لذة استعلائه الظافر الذي لا نفهم سببه قال للزمرة كلها بأدب مصطنع:

- آسف أيها السادة. إنني لا أرى الملك قد مات.

فهل لأحد منكم أن يتفضل ويشرح لي كيف مات؟

تأملنا الرقعة ثم تحولت نظراتنا القلقة إلى السيد "ب"- ذلك لأن ملك زينتوفيك كان في حمى بيدق- حماية لا يشق على طفل أن يراها، إذن لم يمت الملك.

فهل أخطأ صاحبنا في وضع إحدى قطعه؟

أعاده الصمت المطبق من حوله إلى وعيه، ففحص بدوره الرقعة واخذ يفأفىء بعنف:

- ولكن الملك ينبغي أن يكون في المربع ف٧، انه ليس في مكانه، ليس في مكانه قطعاً، انه ليس في مكانه، ليس في مكانه قطعاً، أنت أخطأت اللعب، وكل ما على الرقعة خطأ، فهذا البيدق ينبغي أن يكون في مربع حـ٥ لا جـ٤، ليس هذا هو الدور الذي نلعبه.... انه.

ثم سكت بغتة، كنت أمسكت بذراعه بل قرصته بشدة قرصة أحس وقعها رغم غيبوبته وضلاله، فالتفت ونظر إلي بعيني رجل يمشي في نومه:

- ماذا جرى؟ ماذا تريد؟

فلم افعل إلا أن همست له: تذكر، ولمست بإصبعي اثر الجروح في يده، فتابع حركتي- بنظرة خامدة شاخصة، ونظر إلى اثر الجرح وقد نطق احمراره رعشة تهز جسده وتمتم بشفتين شاحبتين.

- بحق الله، قل لي، هل فعلت شيئاً مريباً... هل أنا من جديد...

فقلت له بهدوء كلا. ولكن كف فوراً عن اللعب. قد آن أوان انصرافك عنه، واذكر تحذير الطبيب.

فنهض من فوره وانحنى أمام زينتوفيك بأدبه المعهود من قبل وقال:

- أرجو الصفح عن خطئي، كان قولي "كش الملك" حماقة مني، هذا واضح، انك أنت الذي كسبت الدور وانتصرت

ثم التفت إلينا وقال:

- وكذلك التمس منكم أيضاً الصفح عني، الم أحذركم من الغلو في الثقة بمقدرتي- معذرة لوقوع هذا الحادث السخيف- إنها آخر مرة في حياتي أحاول أن العب فيها الشطرنج.

وانحنى أمامنا ثانية وانصرف كما قدم علينا من قبل بحركة يلفها التجمل والغموض، وكنت أنا وحدي من بينهم مدركاً لماذا لن يلمس هذا الرجل من بعد رقعة الشطرنج، أما بقية الزمرة فقد مكثت يخامرها شعور بأنها قد نجت من خطر مجهول.

وزمجر ماك كنور قائلاً وقد خاب أمله:

- يا له من غر أحمق.

وكان زينتوفيك آخر الجميع في مغادرة مقاعدنا، ثم من قبل أن ينصرف ألقى نظرة أخرى إلى الدور الذي بدأ ولم يتم وقال بلهجة السمح الكريم المفضال:

- خسارة. لم يكن اللعب رديئاً حتى ينتهي هكذا، إن لصاحبكم رغم انه من الهواة- موهبة مدهشة....

الكتاب للجميع

هكذا نريده؛ إيماناً بكونه قيمة تحتفظ بحجمها وفاعليتها مدى العصور.

وإذ شرعنا فعلاً بإنتاج هذه السلسلة من الكتب القيمة التي نشرت خلال العقود الماضية وتعذر وصولها إلى قارئ اليوم، فإنما نهدف إلى إشاعة المعرفة وتيسير وسائلها وتمكين القارئ من الوصول إلى الينابيع الفكرية ذات التأثير في حركة الثقافة وتاريخ الفكر، بأيسر السبل وأقل التكاليف.

ونأمل أن تكون سلسلة (الكتاب للجميع) إنجازاً فعلياً ووسيلة ميسرة تتيح للقارئ تكوين مكتبة ذات مساحة منفتحة على مختلف فروع المعرفة بكلفة لا تثقل عليه.

كل الأطراف المشاركة في هذا المشروع العربي متنازلة عن حقوقها لصالح القارئ

ISBN:2-84305-835-X



الكتاب للجميع

سلسلة كتب شهرية توزع مجاناً مع الصحف التالية

المدى	العراق
الإتحاد	العراق
الأيام	البحرين
البيان	الإمارات
القبس	الكويت
السفير	لبنان
القاهرة	مصر

المدى